والكلام على هذه الأمور مبسوط فى غير هذا الموضع .

وأكثر الناس لا يعلمون كثيراً من هذه الأقوال ولذلك كثر بينهم القيل والقال ، وما ذكرناه إشارة إلى مجامع المذاهب ... انتهى .

* * *

فصل آخر

فيما قاله الإمام شيخ الإسلام رحمه اللّه تعالى فى مسألة اللفظ كما فى كتابه « موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول »[1]

● القرآن كلام اللّه بلّغه جبريل لمحمد ، ومحمد للناس برسالتهما :

لما كان السَلَف والائمة متفقين على أنّ القرآن كلام اللّه غير مخلوق ، وقد علم المسلمون أنّ القرآن بلّغه جبريل عن اللّه إلى محمد وبلّغه محمد إلى الخلق ، وأنّ الكلام إذا بلّغه المُبلّغ عن قائله لم يخرج عن كونه كلام المُبلّغ عنه ، بل هو كلام لمن قاله مبتدئاً ، لا كلام مَن بلّغه عنه مؤدياً . فالنبى ﷺ إذا قال : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » وبلّغ هذا الحديث عنه واحد بعد واحد حتى وصل إلينا كان المعلوم أنّا إذا سمعناه من المُحَدِّث به إنما سمعنا كلام رسول اللّه ﷺ الذى تكلم به بلفظه ومعناه ، وإنما سمعناه عن المبلّغ عنه بفعله وصوته ، ونفس الصوت الذى تكلم به النبى ﷺ لم نسمعه ، وإنما سمعنا صوت المحدِّث عنه والكلام كلام رسول اللّه ﷺ لا كلام المحدِّث ، فمَن قال إنّ هذا الكلام ليس كلام رسول اللّه ﷺ كان مفترياً ، وكذلك مَن قال إنّ هذا لم يتكلم به رسول اللّه ﷺ وإنما أحدثه فى غيره ، أو أنّ النبى ﷺ لم يتكلم بلفظه وحروفه بل كان ساكتاً أو عاجزاً عن التكلم بذلك فعلم غيره ما فى نفسه فنظم هذه الألفاظ ليعبِّر

---

(١) جـ ١ ص ١٥٣ - هامش منهاج السنة .

عما فى نفس النبى ﷺ ونحو هذا الكلام - فمَن قال هذا كان مفترياً ، ومَن قال إنَّ هذا الصوت المسموع صوت النبى ﷺ كان مفترياً ، فإذا كان هذا معقولاً فى كلام المخلوق فكلام الخالق أولى بإثبات ما يستحقه من صفات الكمال وتنزيه اللّه أن تكون صفاته وأفعاله هى صفات العباد وأفعالهم أو مثل صفات العباد وأفعالهم .

فالسَلَف والأئمة كانوا يعلمون أنَّ هذا القرآن المنزّل المسموع من القارئين كلام اللّه كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّه ﴾ (١) ليس هو كلاماً لغيره لا لفظه ولا معناه ، ولكن بلّغه عن اللّه جبريل وبلّغه محمد عن جبريل ، ولهذا أضافه اللّه إلى كل من الرسولين ، لأنه بلّغه وأداه لا لأنه أحدثه لا لفظه ولا معناه . إذ لو كان أحدهما هو الذى أحدث ذلك لم يصح إضافة الإحداث إلى الآخر فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) فهذا محمد ﷺ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ (٣) فهذا جبريل عليه السلام ، وقد توعد تعالى مَن قال : ﴿ إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ (٤) .

● أصوات القارئين المبلّغين كلام اللّه مخلوقة وهو غير مخلوق :

فمَن قال : إنَّ هذا القرآن قول البَشر فقد كفر ، وقال بقول الوحيد الذى أوعده اللّه سقر ، ومَن قال : إنَّ شيئاً منه قول البَشر فقد قال ببعض قوله ، ومَن قال : إنه ليس بقول رسول كريم وإنما هو قول شاعر أو مجنون أو مفتر ، أو قال : هو قول شيطان نزل به عليه ... ونحو ذلك فهذا أيضاً كافر ملعون .

---

(١) التوبة : ٦
(٢) الحاقة : ٤٠ - ٤٣
(٣) التكوير : ١٩ - ٢١
(٤) المدثر : ٢٥

وقد عَلِمَ المسلمون الفرق بين أن يُسمع كلام المتكلم منه أو من المبلِّغ عنه ، وأن موسى سمع كلام اللّه من اللّه بلا واسطة ، وأنّا نحن إنما نسمع كلام اللّه من المبلِّغين عنه ، وإن كان الفرق ثابتاً بين مَن سمع كلام النبى ﷺ منه ومَن سمعه من الصاحب المبلِّغ عنه فالفرق هنا أولى ، لأن أفعال المخلوق وصفاته أشبه بأفعال المخلوق وصفاته ، من أفعاله وصفاته بأفعال اللّه وصفاته .

ولما كان الجهمية يقولون : إنّ اللّه لم يتكلم فى الحقيقة بل خلق كلاماً فى غيره ، ومَن أطلق منهم أنّ اللّه تكلم حقيقة فهذا مراده فالنزاع بينهم لفظى ، كان من المعلوم أنّ القائل إذا قال : هذا القرآن مخلوق كان مفهوم كلامه أنّ اللّه لم يتكلم بهذا القرآن ، وأنه هو ليس بكلامه بل خلقه فى غيره ، وإذا فسّر مراده بأنى أردت أن حركات العبد وصوته والمِداد مخلوق ، كان هذا المعنى - وإن كان صحيحاً - ليس هو مفهوم كلامه ولا معنى قوله ، فإنّ المسلمين إذا قالوا : هذا القرآن كلام اللّه ، لم يريدوا بذلك أنّ أصوات القائلين وحركاتهم قائمة بذات اللّه ، كما أنهم إذا قالوا : هذا الحديث حديث رسول اللّه ﷺ لم يريدوا بذلك أن حركات المحدث وصوته قامت بذات رسول اللّه ﷺ ، بل وكذلك إذا قالوا فى إنشاد المنشد : « ألا كل شئ ما خلا اللّه باطل » هذا شعر لبيد وكلام لبيد ، لم يريدوا بذلك أن صوت المنشد هو صوت لبيد ، بل أرادوا أنّ هذا القول المؤلَّف لفظه ومعناه هو للبيد وهذا منشد له .

فمَن قال : إنّ هذا القرآن مخلوق ، أو إنّ القرآن المنزّل مخلوق .. أو نحو هذه العبارات كان بمنزلة مَن قال : إنّ هذا الكلام ليس هو كلام اللّه ، وبمنزلة مَن قال عن الحديث المسموع من المحدِّث : إنّ هذا ليس كلام رسول اللّه ﷺ ، وإنّ النبى ﷺ لم يتكلم بهذا الحديث ، وبمنزلة مَن قال : إنّ هذا الشعر ليس هو شعر لبيد ولم يتكلم به لبيد ، ومعلوم أنّ هذا كله باطل .

• أقوال فرق الجهمية الثلاث فى القرآن :

ثم إنَّ هؤلاء صاروا يقولون : هذا القرآن المنزَّل المسموع هو تلاوة القرآن وقراءة القرآن مخلوقة ، ويقولون : تلاوتنا للقرآن مخلوقة ، وقراءتنا له مخلوقة . ويدخلون فى ذلك نفس الكلام المسموع ويقولون : لفظنا بالقرآن مخلوق . ويدخلون فى ذلك القرآن الملفوظ المتلو المسموع ، فأنكر الإمام أحمد وغيره من أئمة السُنَّة هذا وقالوا : اللَّفظية جهمية . وقالوا : افترقت الجهمية ثلاث فرق .. فرقة قالت : القرآن مخلوق ، وفرقة قالت : نقف فلا نقول مخلوق ولا غير مخلوق ، وفرقة قالت : تلاوة القرآن واللفظ بالقرآن مخلوق ، فلما انتشر ذلك عن أهل السُنَّة غلطت طائفة فقالت : لفظنا بالقرآن غير مخلوق وتلاوتنا له غير مخلوقة . فبدَّع الإمام أحمد هؤلاء وأمر بهجرهم ، ولهذا ذكر الأشعرى فى مقالاته هذا عن أهل السُنَّة وأصحاب الحديث فقال : والقول باللفظ والوقف عندهم بدعة : مَن قال اللفظ بالقرآن مخلوق فهو مبتدع عندهم ، ومَن قال غير مخلوق فهو مبتدع .

وكذلك ذكر محمد بن جرير الطبرى فى صريح السُنَّة أنَّه سمع غير واحد من أصحابه يذكر عن الإمام أحمد أنه قال : مَن قال لفظى بالقرآن مخلوق فهو جهمى ، ومَن قال : إنَّه غير مخلوق فهو مبتدع . وصنَّف أبو محمد بن قتيبة فى ذلك كتاباً ، وقد ذكر أبو بكر الخلاَّل هذا فى كتاب السُنَّة وبسط القول فى ذلك وذكر ما صنَّفه أبو بكر المروذى فى ذلك ، وذكر قصة أبى طالب المشهورة عن أحمد التى نقلها عنه أكابر أصحابه كعبد الله وصالح ابنيه والمروذى وأبى محمد فوزان ومحمد بن إسحاق الصنعانى وغير هؤلاء .

• سبب اختلاف أئمة الحديث فى لفظ القارئ للقرآن :

وكان أهل الحديث قد افترقوا فى ذلك فصار طائفة منهم يقولون : لفظنا بالقرآن غير مخلوق ، ومرادهم أنَّ القرآن المسموع غير مخلوق ، وليس مرادهم

صوت العبد ، كما يُذكر ذلك عن أبى حاتم الرازى ومحمد بن داود المصيصى وطوائف غير هؤلاء ، وفى أتباع هؤلاء مَن قد يُدخل صوت العبد أو فعله فى ذلك أو يقف ، ففهم ذلك بعض الأئمة فصار يقول : أفعال العباد أصواتهم مخلوقة ، رداً لهؤلاء كما فعل البخارى ومحمد بن نصر المروذى وغيرهما من أهل العلم والسُنَّة ، وصار يحصل بسبب كثرة الخوض فى ذلك ألفاظ مشتركة وأهواء للنفوس حصل بذلك نوع من الفُرقة والفتنة .

وحصل بين البخارى وبين محمد بن يحيى الذهلى فى ذلك ما هو معروف ، وصار قوم مع البخارى كمسلم بن الحجاج ونحوه وقوم عليه كأبى زرعة وأبى حاتم وغيرهما ، وكل هؤلاء من أهل العلم والسُنَّة والحديث وهم أصحاب أحمد بن حنبل ولهذا قال ابن قتيبة : إنَّ أهل السُنَّة لم يختلفوا فى شئ من أقوالهم إلا فى مسألة اللفظ .

وصار قوم يطلقون القول بأن التلاوة هى المتلو والقراءة هى المقروء ، وليس مرادهم بالتلاوة المصدر ولكن الإنسان إذا تكلم بالكلام فلا بد له من حركة ومما يكون عن الحركة من أقواله التى هى حروف منظومة ومعان مفهومة .

والقول والكلام يُراد به تارة المجموع فتدخل الحركة فى ذلك ويكون الكلام نوعاً من العمل وقسماً منه ، ويُراد به تارة ما يقترن بالحركة ويكون عنها لا نفس الحركة فيكون الكلام قسيماً للعمل ونوعاً آخر ليس هو منه .

ولهذا تنازع العلماء فى لفظ العمل المطلق هل يدخل فيه الكلام على قولين معروفين لأصحاب أحمد وغيرهم ، وبنوا على ذلك ما إذا حلف لا يعمل اليوم عملاً فتكلم هل يحنث ؟ على قولين : وذلك لأن لفظ الكلام قد يدخل فى العمل وقد لا يدخل ، فالأول كما فى قول النبى ﷺ : « لا تحاسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه اللّه القرآن فهو يتلوه آناء اللّيل والنهار فهو يقول : لو أوتيتُ مثل

ما أُوتِىَ هذا لعملتُ مثل ما يعمل » (كما أخرجه الشيخان فى الصحيحين) ، فقد جعل فعل هذا الذى يتلوه آناء اللّيل والنهار عملاً كما قال : لعملتُ فيه مثل ما يعمل الثانى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ (٢) .

فالذين قالوا : التلاوة هى المتلو من أهل العلم والسُنّة قصدوا أنَّ التلاوة هى القول والكلام المتلو ، وآخرون قالوا : بل التلاوة غير المتلو والقراءة غير المقروء .

والذين قالوا ذلك من أهل السُنّة والحديث أرادوا بذلك أنَّ أفعال العباد ليست هى كلام اللّه ولا أصوات العباد هى صوت اللّه ، وهذا الذى قصده البخارى وهو مقصود صحيح .

● قراءة القرآن بمعنى « المصدر » فعل العبد ، وبمعنى « المقروء » كلام الرب :

وسبب ذلك أنَّ لفظ التلاوة والقراءة واللفظ مجمل مشترك ، يُراد به المصدر ويُراد به المفعول ، فمَن قال : اللفظ ليس هو الملفوظ والقول ليس هو المقول ، وأراد باللفظ والقول المصدر ، كان معنى كلامه أنَّ الحركة ليست هى الكلام المسموع وهذا صحيح ، ومَن قال : اللفظ هو الملفوظ والقول هو نفس المقول ، وأراد باللفظ والقول نفس المقول وأراد باللفظ والقول مسمى المصدر ، صار حقيقة مراده أنَّ اللفظ والقول هو الكلام المقول الملفوظ وهذا صحيح .

---

(١) فاطر : ١٠ (٢) يونس : ٦١

● غرض المبتدعة من قولهم « تلاوة القرآن وألفاظه مخلوقة » :

فمَن قال : اللفظ بالقرآن أو القراءة أو التلاوة مخلوقة ، أو لفظى بالقرآن أو تلاوتى - دخل فى كلامه نفس الكلام المقروء المتلو ، وذلك هو كلام اللّه تعالى ، وإن أراد بذلك مجرد فعله وصوته كان المعنى صحيحاً ، لكن إطلاق اللفظ يتناول هذا وغيره ، ولهذا قال أحمد فى بعض كلامه : مَن قال لفظى بالقرآن مخلوق يريد به القرآن فهو جهمى ، احترازاً عما إذا أراد به فعله وصوته .

وذكر اللالكائى : أنَّ بعض مَن كان يقول ذلك رأى فى منامه كأن عليه فروة ورجل يضربه ، فقال له : لا تضربنى ، فقال : إنى لا أضربك وإنما أضرب الفروة ، فقال : إن الضرب إنما يقع ألمه علىَّ . فقال : هكذا إذا قلت لفظى بالقرآن مخلوق وقع الخلق على القرآن .

ومَن قال : لفظى بالقرآن غير مخلوق أو تلاوتى - دخل فى ذلك المصدر الذى هو عمله ، وأفعال العباد مخلوقة ، ولو قال : أردت به أن القرآن المتلو غير مخلوق لا نفس حركاتى ، قيل : لفظك هذا بدعة وفيه إجمال وإيهام ، وإن كان مقصودك صحيحاً فلهذا منع أئمة السُنَّة الكبار إطلاق هذا وهذا وكان هذا وسطاً بين الطرفين .

وكان أحمد وغيره من الأئمة يقولون : القرآن حيث تصرف كلام اللّه غير مخلوق ، من غير أن يقرن بذلك ما يُشعر أنَّ أفعال العباد وصفاتهم غير مخلوقة .

وصارت كل طائفة من النُفاة والمثبتة فى مسألة التلاوة تحكى قولها عن أحمد ، وهم كما ذكر البخارى فى كتاب « خلق الأفعال » ، وقال : إن كل واحدة من هاتين الطائفتين تذكر قولها عن أحمد وهم لا يفقهون قوله لدقة معناه .

ثم صار ذلك التفرق موروثاً فى أتباع الطائفتين ، فصارت طائفة تقول : إنَّ اللفظ بالقرآن غير مخلوق - موافقة لأبى حاتم الرازى ومحمد بن داود المصيصى وأمثالهما كأبى عبد الله بن منده وأهل بيته وأبى عبد الله بن حامد وأبى نصر السجزى وأبى إسماعيل الأنصارى وأبى يعقوب الفرات الهروى وغيرهم . وقوم يقولون نقيض هذا القول من غير دخول فى مذهب ابن كلاب مع اتفاق الطائفتين على أنَّ القرآن كله كلام الله لم يحدث غيره شيئاً منه ، ولا خلق منه شيئاً فى غيره ، لا حروفه ولا معانيه ، مثل حسين الكرابيسى وداود بن على الأصبهانى وأمثالهما .

● بدعة ابن كلاب فى الكلام ومسألة اللفظ فى القرآن :

وحدث مع هذا مَن يقول بقول ابن كلاب : إنَّ كلام الله معنى واحد قائم بنفس المتكلم هو الأمر بكل ما أمر به والنهى عن كل ما نهى عنه والإخبار بكل ما أخبر به ، وأنه إن عبِّر عنه بالعربية كان هو القرآن وإن عبِّر عنه بالعبرية كان هو التوراة .

وجمهور الناس من أهل السُنَّة والمعتزلة وغيرهم أنكروا ذلك وقالوا : إنَّ فساد هذا معلوم بصريح العقل فإن التوراة إذا عُرِّبت لم تكن هى القرآن ولا معنى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (١) هو معنى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ (٢) . وكان يوافقهم على إطلاق القول بأن التلاوة غير المتلو وأنها مخلوقة مَن لا يوافقهم على هذا المعنى ، بل قصده أنَّ التلاوة أفعال العباد وأصواتهم ، وصار أقوام يطلقون القول بأنَّ التلاوة غير المتلو وأنَّ اللفظ بالقرآن مخلوق . فمنهم مَن يُعرف أنه موافق لابن كلاب ، ومنهم مَن يُعرف مخالفته له ، ومنهم مَن لا يُعرف منه لا هذا ولا هذا ، وصار أبو الحسن الأشعرى ونحوه ممن يوافق ابن كلاب على قوله موافقاً للإمام أحمد وغيره من أئمة السُنَّة فى المنع من إطلاق هذا وهذا ،

---

(١) الإخلاص : ١ (٢) المسد : ١

فيمنعون أن يُقال : اللفظ بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق ، وهؤلاء منعوه من جهة كونه يقال فى القرآن إنه بلفظ أو لا بلفظ ، وقالوا : اللفظ الطرح والرمى . ومثل هذا لا يقال فى القرآن . ووافق هؤلاء على التعليل بهذا طائفة ممن لا يقول بقول ابن كلاب فى الكلام كالقاضى أبى يعلى وأمثاله . ووقع بين أبى نعيم الأصبهانى وأبى عبد الله بن مندة فى ذلك ما هو معروف ، وصنَّف أبو نعيم فى ذلك كتابه فى الرد على اللفظية والحلولية ، ومال فيه إلى جانب النفاة القائلين بأنَّ التلاوة مخلوقة ، كما مال ابن مندة إلى جانب مَن يقول إنها غير مخلوقة . وحكى كل منهما عن الأئمة ما يدل على كثير من مقصوده لا على جميعه . فما قصده كل منهما من الحق وجد فيه من المنقول الثابت عن الأئمة ما يوافقه .

وكذلك وقع بين أبى ذر الهروى وأبى نصر السجزى فى ذلك حتى صنَّف أبو نصر السجزى كتابه الكبير فى ذلك المعروف بـ « الإبانة » وذكر فيه من الفوائد والآثار والانتصار للسُنَّة وأهلها أموراً عظيمة المنفعة . لكنه نصر فيه قول مَن يقول : لفظى بالقرآن غير مخلوق ، وأنكر على ابن قتيبة وغيره ما ذكروه من التفصيل ، ورجَّح طريقة مَن هجر البخارى ، وزعم أنَّ أحمد بن حنبل كان يقول : لفظى بالقرآن غير مخلوق ، وأنه رجع إلى ذلك ، وأنكر ما نقله الناس عن أحمد من إنكاره على الطائفتين - وهى مسألة أبى طالب المشهورة ، وليس الأمر كما ذكره ، فإنَّ الإنكار على الطائفتين مستفيض عن أحمد عند أخص الناس به من أهل بيته وأصحابه الذين اعتنوا بجمع كلام أحمد ، كالمروذى والخلاَّل وأبي بكر عبد العزيز وأبى عبد الله بن بطة وأمثالهم . وقد ذكروا من ذلك ما يعلم كل عارف له أنه من أثبت الأمور عن أحمد .

• أصح قولى المتبعين لقول أحمد من المحدِّثين والنُظَّار :

وهؤلاء العراقيون أعلم بأقوال أحمد من المنتسبين إلى السُنَّة والحديث من أهل خراسان الذين كان ابن مندة وأبو نصر وأبو إسماعيل الهروى وأمثالهم يسلكون حذوهم ، ولهذا صنَّف عبد الله بن عطاء الإبراهيمى كتاباً فيمن أخذ عن أحمد العلم ، فذكر طائفة ذكر منهم أبا بكر الخلاَّل وظن أنه أبو محمد الخلاَّل شيخ

القاضى أبى يعلى وأبى بكر الخطيب فاشتبه عليه هذا بهذا ، وهذا كما أنَّ العراقيين المنتسبين إلى أهل الإثبات من أتباع ابن كلاب - كأبى العباس القلانسى وأبى الحسن الأشعرى وأبى الحسن على بن مهدى الطبرى والقاضى أبى بكر الباقلانى وأمثالهم - أقرب إلى السُنَّة وأتبع لأحمد بن حنبل وأمثاله من أهل خراسان المائلين إلى طريقة ابن كلاب ، ولهذا كان القاضى أبو بكر بن الطيب يكتب فى أجوبته أحياناً : « محمد بن الطيب الحنبلى » كما كان يقول الأشعرى ، إذ كان الأشعرى وأصحابه منتسبين إلى أحمد بن حنبل وأمثاله من أئمة السُنَّة ، وكان الأشعرى أقرب إلى مذهب أحمد بن حنبل وأهل السُنَّة من كثير من المتأخرين المنتسبين إلى أحمد الذين مالوا إلى بعض كلام المعتزلة كابن عقيل وصدقة بن الحسين وابن الجوزى وأمثالهم .

وكان أبو ذر الهروى قد أخذ طريقة الباقلانى وأدخلها إلى الحرم ، ويقال إنه أول مَن أدخلها إلى الحرم ، وعنه أخذ ذلك مَن أخذه من أهل المغرب ، فإنهم كانوا يسمعون عليه البخارى ويأخذون ذلك عنه كما أخذه أبو الوليد الباجى . ثم رحل الباجى إلى العراق فأخذ طريقه الباقلانى عن أبى جعفر السمنانى الحنفى قاضى الموصل صاحب الباقلانى .

ونحن قد بسطنا الكلام فى هذه المسائل وبيَّنا ما حصل فيها من النزاع والاضطراب فى غير هذا الموضع .. انتهى

* * *

فصل آخر

أو فتوى فى مسألة الكلام لشيخ الإسلام رحمه اللّه

- **حكم مَن أنكر تكليم اللّه لموسى وأخذ جبريل القرآن عن اللّه تعالى :**

سُئِلَ شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه اللّه تعالى فى رجل قال : إنَّ اللّه لم يكلِّم موسى تكليماً ، وإنما خلق الكلام والصوت فى الشجرة ، وموسى عليه السلام سمع من الشجرة لا من اللّه ، وأنَّ اللّه عَزَّ وجَلَّ لم يكلم جبريل بالقرآن وإنما أخذه من اللوح المحفوظ ، فهل هو على الصواب أم لا ؟

● فأجاب : الحمد لله ، ليس هذا على الصواب ، بل هذا ضال مفتر كاذب باتفاق سَلَف الأمة وأئمتها ، بل هو كافر يجب أن يُستتاب فإن تاب وإلا قُتل ، وإذا قال : لا أكذِّب بلفظ القرآن وهو قوله : ﴿ وكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ [1] بل أقرُّ بأنَّ هذا اللفظ حق لكن أنفى معناه وحقيقته [2] .

● مذهب الجهمية فى نفى الصفات والتكليم وما كان عليه أئمة الدين :

فإنَّ هؤلاء هم الجهمية [3] الذين اتفق السَلَف والأئمة على أنهم من شر أهل الأهواء والبدع حتى أخرجهم كثير من الأئمة عن الثنتين والسبعين فرقة .

وأول مَن قال هذه المقالة فى الإسلام كان يقال له الجعد بن درهم [4] فضحَّى به خالد بن عبد الله القسرى يوم أضحى ، فإنه خطب الناس فقال فى خطبته : ضحُّوا أيها الناس ، تقبَّل الله ضحاياكم ، فإنى مضحٍ بالجعد بن درهم ، إنه زعم أنَّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلِّم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه . وكان ذلك فى زمن التابعين فشكروا ذلك ، وأخذ هذه المقالة عنه جهم بن صفوان وقتله بخراسان سلمة بن أحور ، وإليه نُسبت هذه المقالة التى تسمى مقالة الجهمية ، وهى نفى صفات الله تعالى ، فإنهم يقولون : إنَّ الله لا يُرَى فى الآخرة ولا يُكلِّم عباده ، وأنه ليس له علم ولا حياة ولا قُدرة ... ونحو ذلك من الصفات ، ويقولون : القرآن مخلوق .

ووافق الجهم على ذلك المعتزلة [5] أصحاب عمرو بن عبيد وضموا إليها بدعاً أخرى فى القَدَر وغيره ، ولكن المعتزلة يقولون : إنَّ الله كلَّم موسى حقيقة

---

(١) النساء : ١٦٤

(٢) أى هو كافر وإن قال : لا أكذِّب بلفظ القرآن ... إلخ .

(٣) للتعريف بالجهمية انظر جـ ١ ص ١١٧ ، وجـ ٣ ص ١٢ (البلتاجى) .

(٤) انظر جـ ١ ص ١٦٢ ، جـ ٣ ، ص ٢٨ ، ١١١ (البلتاجى) .

(٥) للتعريف بالمعتزلة انظر جـ ١ ص ٢١٣ ، وجـ ٣ ص ١٢ ، ١١١ (البلتاجى) .

وتكلم حقيقة ، لكن حقيقة ذلك عندهم أنه خلق كلاماً فى غيره ، إما فى شجرة ، وإما فى هواء ، وإما فى غير ذلك .. من غير أن يقوم بذات اللّه عندهم كلام ولا علم ولا قُدرة ولا رحمة ولا مشيئة ولا حياة ولا شئ من الصفات .

والجهمية تارة يبوحون بحقيقة القول ، فيقولون : إنَّ اللّه لم يكلّم موسى تكليماً ولا يتكلم ، وتارة لا يظهرون هذا اللفظ لما فيه من الشناعة المخالفة لدين الإسلام واليهود والنصارى ، فيقرون باللفظ ولكن يقرنونه بانه خلق فى غيره كلاماً .

وأئمة الدين كلهم متفقون على ما جاء به الكتاب والسُنَّة واتفق عليه سَلَف الأمة من أنَّ اللّه كلّم موسى تكليماً ، وأنَّ القرآن كلام اللّه غير مخلوق ، وأنَّ المؤمنين يرون ربهم فى الآخرة ، كما تواترت به الأحاديث عن النبى ﷺ ، وأنَّ للّه علماً وقُدرة ونحو ذلك .

• تصريح خمسمائة وخمسون من التابعين وأئمة الأمصار بعدم خلق القرآن :

ونصوص الأئمة فى ذلك مشهورة متواترة حتى إنَّ أبا القاسم الطبرى الحافظ لما ذكر فى كتابه فى شرح أصول السُنَّة مقالات السَلَف والأئمة فى الأصول ذكر مَن قال : « القرآن كلام اللّه غير مخلوق » وقال : فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفساً أو أكثر من التابعين والأئمة المرضيين سوى الصحابة ، على اختلاف الأعصار ومضى السنين والأعوام ، وفيهم نحو من مائة إمام ممن أخذ الناس بقولهم وتدينوا بمذاهبهم ، ولو اشتغلتُ بنقل قول أهل الحديث لبلغت أسماؤهم ألوفاً ، لكنى اختصرت فنقلت عن هؤلاء عصراً بعد عصر لا ينكر عليهم منكر ، ومَن أنكر قولهم استتابوه أو أمروا بقتله أو نفيه أو صلبه ، قال : ولا خلاف بين الأمة أنَّ أول مَن قال : « القرآن مخلوق » جعد بن درهم فى سنى نيف وعشرين ومائة ، ثم جهم بن صفوان [1] ، فأما جعد فقتله خالد بن عبد اللّه القسرى ، وأما جهم فقُتِل بمرو فى خلافة هشام بن عبد الملك .

---

(١) انظر ص ٢٨ من هذا الجزء (البلتاجى) .

وروى بإسناده عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه من وجهين أنهم قالوا له يوم صفين : حكَّمتَ رجلين ؟ فقال : ما حكَّمتُ مخلوقاً ، ما حكَّمتُ إلا القرآن ، وعن عِكرمة قال : كان ابن عباس فى جنازة ، فلما وُضِعَ الميت فى لحده قام رجل وقال : اللّهم رب القرآن اغفر له ، فوثب إليه ابن عباس فقال : مَهْ ، القرآن منه ، وعن عبد الله بن مسعود قال : مَن حلف بالقرآن فعليه بكل آية يمين ، وهذا ثابت عن ابن مسعود ، وعن سفيان بن عيينة قال : سمعت عمرو بن دينار يقول : أدركتُ مشايخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون : القرآن كلام الله ، منه بدأ وإليه يعود - وفى لفظ يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق - وقال حرب الكرمانى حدثنا إسحاق بن إبراهيم - يعنى ابن راهويه - عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال : أدركتُ الناس منذ سبعين ، أدركتُ أصحاب النبى ﷺ فمَن دونهم يقولون : الله الخالق وما سواه مخلوق ، إلا القرآن فإنه كلام الله ، منه خرج وإليه يعود .

وهذا قد رواه عن ابن عيينة إسحاق ، وإسحاق إما أن يكون سمعه منه أو من بعض أصحابه عنه ، وعن جعفر الصادق بن محمد - وهو مشهور عنه - أنهم سألوه عن القرآن : أخالق هو أم مخلوق ؟ فقال : ليس بخالق ولا مخلوق ، ولكنه كلام الله .

● النقول عن الأئمة الأربعة وأمثالهم : « أنَّ القرآن غير مخلوق » :

وهكذا رُوِىَ عن الحسن البصرى وأيوب السختيانى وسليمان التيمى وخلق من التابعين . وعن مالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان الثورى وابن أبى ليلى وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ، وأمثال هؤلاء من الأئمة ، وكلام هؤلاء الأئمة وأتباعهم فى ذلك كثير مشهور ، بل اشتهر عن أئمة السَلَف تكفير مَن قال : « القرآن مخلوق » ، وأنه يُستتاب فإن تاب

وإلا قُتِل ، كما ذكروا ذلك عن مالك بن أنس وغيره ، ولذلك قال الشافعى لحفص الفرد - وكان من أصحاب ضرار بن عمر ممن يقول : « القرآن مخلوق » ، فلما ناظر الشافعى وقال له : القرآن مخلوق ، قال له الشافعى : كفرتَ باللّه العظيم (ذكره ابن أبى حاتم فى الرد على الجهمية) ، قال : كان فى كتابى عن الربيع بن سليمان قال : حضرتُ الشافعى - أو حدثنى أبو شعيب إلا أنى أعلم حضر عبد اللّه بن عبد الحكم ويوسف بن عمرو بن يزيد فسأل حفص عبد اللّه قال : ما تقول فى القرآن ؟ فأبى أن يجيبه ، فسأل يوسف بن عمرو فلم يجبه ، وكلاهما أشار إلى الشافعى ، فسأل الشافعى فاحتج عليه وطالت فيه المناظرة ، فقال الشافعى بالحجة بأن القرآن كلام اللّه غير مخلوق وكفَّرَ حفصاً الفرد ، قال الربيع : فلقيتُ حفصاً فى المسجد بعد هذا فقال : أراد الشافعى قتلى .

وأما مالك بن أنس فنُقِلَ عنه من غير وجه الرد على مَن يقول : « القرآن مخلوق » واستتابته ، وهذا المشهور عنه متفق عليه بين أصحابه . وأما أبو حنيفة وأصحابه فقد ذكر أبو جعفر الطحاوى فى « الاعتقاد » الذى قال فى أوله: « ذكر بيان اعتقاد أهل السُنَّة والجماعة على مذهب فقهاء الملة » (أبى حنيفة النعمان ابن ثابت الكوفى وأبى يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصارى وأبى عبد اللّه محمد ابن الحسن الشيبانى) قال فيه : « وإنَّ القرآن كلام اللّه ، منه بدأ بلا كيفية قولاً ، وأنزله على نبيه وحياً ، وصدَّقه المؤمنون على ذلك حقاً ، وأثبتوا أنه كلام اللّه تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية ، فمن سمعه فزعم أنه كلام البَشر فقد كفر ، وقد ذمَّه اللّه وعابه وأوعده عذابه وتوعده حيث قال : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ (١) ، فلما أوعد اللّه سقر لمن قال : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ (٢) علمنا أنه قول خالق البَشر ولا يشبه قول البَشر » .

---

(١) المدثر : ٢٦ (٢) المدثر : ٢٥

• محنة القول بخلق القرآن ونصر الله الحق بأحمد بن حنبل :

وأما أحمد بن حنبل فكلامه فى مثل هذا مشهور متواتر ، وهو الذى اشتهر بمحنة هؤلاء الجهمية [1] ، فإنهم أظهروا القول بإنكار صفات الله تعالى وحقائق أسمائه وأنَّ القرآن مخلوق ، حتى صار حقيقة قولهم تعطيل الخالق سبحانه وتعالى ، ودعوا الناس إلى ذلك ، وعاقبوا مَن لم يجبهم إما بالقتل وإما بقطع الرزق وإما بالعزل عن الولاية وإما بالحبس أو بالضرب ، وكفَّروا مَن خالفهم ، فثبَّت الله تعالى الإمام أحمد حتى أظهر الله به باطلهم ، ونصر أهل الإيمان والسُنَّة عليهم ، وأذلَّهم بعد العز ، وأخملهم بعد الشُهرة ، واشتهر عند خواص الأمة وعوامها أنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق ، وإطلاق القول أنَّ مَن قال : « إنَّه مخلوق » فقد كفر .

وأما إطلاق القول بأنَّ الله لم يُكلِّم موسى فهذه مناقضة لنص القرآن فهو أعظم من القول بأنَّ القرآن مخلوق ، وهذا بلا ريب يُستتاب فإن تاب وإلا قُتِل ، فإنه أنكر نص القرآن ، وبذلك أفتى الأئمة والسَلَف فى مثله ، والذى يقول : « القرآن مخلوق » فهو فى المعنى موافق له ، فلذلك كفَّره السَلَف .

قال البخارى فى كتاب « خلق الأفعال » : قال سفيان الثورى : مَن قال : « القرآن مخلوق » فهو كافر ، قال : وقال عبد الله بن المبارك مَن قال : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا ﴾ [2] مخلوق ، فهو كافر ولا ينبغى لمخلوق أن يقول ذلك ، قال : وقال ابن المبارك : لا نقول كما قالت الجهمية : « إنه فى الأرض ههنا » ، بل على العرش استوى ، وقيل له : كيف نعرف ربنا ؟ قال : فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه .

---

(١) انظر ص ٢٨ من هذا الجزء (البلتاجى) .

(٢) طه : ١٤

وقال : مَن قال : « لا إله إلاَّ اللّه » مخلوق فهو كافر ، وإنَّا نحكى كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكى كلام الجهمية . قال : وقال على بن عاصم : ما الذين قالوا إنَّ للّه ولداً أكفر من الذين قالوا إنَّ اللّه لا يتكلم .

• نقول البخارى فى تكفير السَلَف للجهمية فى خلق القرآن :

قال البخارى : وكان إسماعيل بن أبى إدريس يسميهم زنادقة العراق ، وقيل له : سمعت أحداً يقول القرآن مخلوق ؟ فقال : هؤلاء الزنادقة . قال : وقال أبو الوليد : سمعت يحيى بن سعيد - وذُكرَ له أنَّ قوماً يقولون : « القرآن مخلوق » - فقال : كيف يصنعون بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، كيف يصنعون بقوله : ﴿ إنَّنِى أَنَا اللَّهُ لا إلهَ إلا أَنَا ﴾ ؟ قال : وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : نظرتُ فى كلام اليهود والمجوس فما رأيتُ قوماً أضل فى كفرهم منهم ، وإنى لأستجهل مَن لا يكفرهم إلا مَن لا يعرف كفرهم . قال : وقال سليمان بن داود الهاشمى : مَن قال : « القرآن مخلوق » فهو كافر ، وإن كان القرآن مخلوقاً كما زعِموا ، فلِمَ صار فرعون أولى بأن يخلد فى النار إذ قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ (١) ؟ وزعموا أنَّ هذا مخلوق ، والذى قال : ﴿ إنَّنِى أَنَا اللَّهُ لا إلهَ إلا أَنَا فَاعْبُدْنِى ﴾ هذا أيضاً قد ادعى ما ادعى فرعون ، فلِمَ صار فرعون أولى أن يخلد فى النار من هذا ؟ وكلاهما عنده مخلوق . فأخبر بذلك أبو عبيد فاستحسنه وأعجبه .

ومعنى كلام هؤلاء السَلَف رضى اللّه عنهم : أنَّ مَن قال إن كلام اللّه مخلوق خلقه فى الشجرة أو غيرها - كما قال هذا الجهمى المعتزلى المسؤل عنه ، كان حقيقة قوله : إنَّ الشجرة هى التى قالت لموسى : ﴿ إنَّنِى أَنَا اللَّهُ لاَ إلهَ إلا أَنَا فَاعْبُدْنِى ﴾ (٢) ، ومَن قال : « هذا مخلوق » قال ذلك ، فهذا المخلوق

---

(١) النازعات : ٢٤ (٢) طه : ١٤

عنده كفرعون الذى قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى ﴾ ، كلاهما مخلوق ، وكلاهما قال ذلك ، فإن كان قول فرعون كفراً فقول هؤلاء أيضاً كفر ، ولا ريب أنَّ قول هؤلاء يؤول إلى قول فرعون ، وإن كانوا لا يفهمون ذلك ، فإنَّ فرعون كذَّب موسى فيما أخبر به : من أنَّ ربه هو الأعلى ، وأنه كلَّمه كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِى صَرْحاً لَّعَلِّى أَبْلُغُ الأسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّى لأَظُنُّهُ كَاذِباً ﴾ (١) وهو قد كذَّب موسى فى أنَّ الله كلَّمه .

● تفنيد قولهم : « إن اللَّه خلق كلامه فى الشجرة فسمعه موسى منها » :

ولكن هؤلاء يقولون : إذا خلق كلاماً فى غيره صار هو المتكلم به ، وذلك باطل وضلال من وجوه كثيرة .

أحدها : أنَّ الله سبحانه أنطق الأشياء كلها نطقاً معتاداً ونطقاً خارجاً عن المعتاد ، قال تعالى : ﴿ اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ، قَالُواْ أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٤) ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالعَشِىِّ وَالإِشْرَاقِ ﴾ (٥) ، وقد ثبت أنَّ الحصى كان يُسَبِّح فى يد النبى ﷺ ، وأنَّ الحجر كان يُسلِّم عليه ، وأمثال ذلك من إنطاق الجمادات ، فلو كان إذا خلق

---

(١) غافر : ٣٦ - ٣٧ (٢) يس : ٦٥ (٣) فصلت : ٢٠ - ٢١
(٤) النور : ٢٤ (٥) سورة ص : ١٨

كلاماً فى غيره كان هو المتكلم به كان هذا كله كلام الله تعالى ويكون قد كلّم مَن سمع هذا الكلام كما كلّم موسى بن عمران ، بل قد ثبت أنّ الله خالق أفعال العباد ، فكل ناطق فالله خالق نطقه وكلامه ، فلو كان متكلماً بما خلقه من الكلام لكان كل كلام فى الوجود كلامه حتى كلام إبليس والكفار وغيرهم ، وهذا تقوله غلاة الجهمية كابن عربى وأمثاله [1] يقولون :

وكل كلام فى الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وهكذا أشباه هؤلاء من غلاة المشبهة الذين يقولون : إنّ كلام الآدميين غير مخلوق ، فإنّ كل واحد من الطائفتين يجعلون كلام المخلوق بمنزلة كلام الخالق فأولئك يجعلون الجميع مخلوقاً وأن الجميع كلام الله ، وهؤلاء يجعلون الجميع كلام الله وهو غير مخلوق ، ولهذا كان قد حصل اتصال بين شيخ الجهمية الحلولية وشيخ المشبهة الحلولية بسبب هذه البدع وأمثالها من المنكرات المخالفة لدين الإسلام سلّط الله ..... [2] أعداء الدين ، فإنّ الله يقول : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ [3] وأى معروف أعظم من الإيمان بالله وأسمائه وآياته ؟ وأى منكر أعظم من الإلحاد فى أسماء الله وآياته ؟

---

(١) يُكثر شيخ الإسلام فى هذا البحث من هذا الجمع أو التنظير بين الجهمية وابن عربى وأمثاله من القائلين بوحدة الوجود ، ولا يذكر فيه الفرق بينهم وهو أن الجهمية ينكرون صفات الخالق هرباً من تشبيهه بخلقه فجعلوه كالعدم ، والاتحادية زعموا أنه لا موجود غيره ، فهو الخالق والمخلوق عيناً وصفة ، ومن ثمّ كان كل كلام فى الوجود كلامه إذ لا وجود لغيره ، وشيخ الإسلام قد فصل مذهبهم هذا وبيّن بطلانه فى رسالة أخرى من هذا المجموع .

(٢) فى الكلام نقص لعله : « حتى سلّط الله علماء السُّنّة فنصحوا أعداء الدين » أو نحو هذا مما ينتظم به الكلام .

(٣) الحج : ٤٠ - ٤١

● ما خلقه اللّه فى مخلوقاته من الصفات والأعراض فهى المتصفة به لا هو :

الوجه الثانى : أن يُقال لهؤلاء الضالين : ما خلقه اللّه فى غيره من الكلام وسائر الصفات فإنما يعود حكمه على ذلك المحل لا على غيره ، فإذا خلق اللّه فى بعض الأجسام حركة أو طعماً أو لوناً أو ريحاً كان ذلك الجسم هو المتحرك المتلون المتروح المطعوم ، وإذا خلق بمحل حياة أو علماً أو قُدرة أو إرادة أو كلاماً كان ذلك المحل هو الحى العالِم القادر المريد المتكلم . فإذا خلق كلاماً فى الشجرة أو فى غيرها من الأجسام كان ذلك الجسم هو المتكلم بذلك الكلام ، كما لو خلق فيه إرادة أو حياة أو علماً ، ولا يكون اللّه هو المتكلم به ، كما إذا خلق فيه حياة أو قُدرة أو سمعاً أو بصراً ، كان ذلك المحل هو الحى به والقادر به والسميع به والبصير به ، فكما أنه سبحانه لا يجوز أن يكون متصفاً بما خلقه من الصفات المشروطة بالحياة وغير المشروطة بالحياة ، فلا يكون هو المتحرك بما خلقه فى غيره من الحركات ، ولا المصوِّت بما خلقه فى غيره من الأصوات ، ولا سمعه ولا بصره وقُدرته ما خلقه فى غيره من السمع والبصر والقَدرة ، فكذلك لا يكون كلامه ما خلقه فى غيره من الكلام ولا يكون متكلماً بذلك الكلام .

● الأسماء المشتقة من المصدر يسمى بها مَن قام به مسمى المصدر :

الوجه الثالث : أنَّ الاسم المشتق من معنى لا يتحقق بدون ذلك المعنى ، فاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعال التفضيل يمتنع ثبوت معناها دون معنى المصدر التى هى مشتقة منه ، والناس متفقون على أنه لا يكون متحرك ولا متكلم إلا بحركة وكلام ، فلا يكون مريد إلا بإرادة ، وكذلك لا يكون عالِم إلا بعلم ، ولا قادر إلا بقُدرة ... ونحو ذلك .

ثم هذه الأسماء المشتقة من المصدر إنما يسمى بها مَن قام به مسمى المصدر ، فإنما يسمى بالحى مَن قامت به الحياة ، وبالمتحرك مَن قامت به الحركة ، وبالعالِم مَن قام به العلم ، وبالقادر مَن قامت به القُدرة ، فأما مَن لم يقم به مسمى المصدر فيمتنع أن يسمى باسم الفاعل ونحوه من الصفات . وهذا معلوم بالاعتبار فى جميع النظائر .

وذلك لأن اسم الفاعل ونحوه من المشتقات هو مركَّب يدل على الذات وعلى الصفة ، والمركَّب يمتنع تحققه بدون تحقق مفرداته . وهذا كما أنه ثابت فى الأسماء المشتقة ، فكذلك فى الأفعال مثل : تكلم وكلَّم ويتكلم ، وعَلِم ويعلم ، وسمع ويسمع ، ورأى ويرى ... ونحو ذلك سواء ، قيل : إنَّ الفعل المشتق من المصدر أو المصدر مشتق من الفعل ، لا نزاع بين الناس أنَّ فاعل الفعل هو فاعل المصدر ، فإذا قيل : كلَّم أو علِم أو تكلَّم أو تعلَّم ، ففاعل التكليم والتعليم هو المكلم والمعلم ، وكذلك التعلم والتكلم ، والفاعل هو الذى قام به المصدر الذى هو التكليم والتعليم والتكلم والتعلم ، فإذا قيل : تكلم فلان أو كلَّم فلانٌ فلاناً ، ففلان هو المتكلم والمكلِّم ، فقوله تعالى : ﴿ وكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ تلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ (٣) يقتضى أنَّ اللَّه هو المكلِّم ، فكما يمتنع أن يُقال : هو متكلم بكلام قائم بغيره ، يمتنع أن يقال : كلَّم بكلام قائم بغيره .

• الرد على الجهمية فى مسألة الكلام من وجوه أُخر :

فهذه ثلاثة أوجه (٤) .. أحدها : أنه يلزم الجهمية على قولهم أن يكون كل كلام خلقه اللَّه كلاماً له ، إذ لا معنى لكون القرآن كلام اللَّه إلا كونه خلقه ،

---

(١) النساء : ١٦٤ (٢) البقرة : ٢٥٣ (٣) الأعراف : ١٤٣

(٤) قوله : فهذه ثلاثة أوجه ، يعنى ما تقدم وقد لخصها فيما يأتى وزاد عليها وجهين آخرين كان ينبغى أن يصرح بزيادتهما .

وكل مَن فعل كلاماً ولو فى غيره كان متكلماً به عندهم ، وليس للكلام عندهم مدلول يقوم بذات الرب تعالى لو كان مدلول قائماً يدل لكونه خلق صوتاً فى محل ، والدليل يجب طرده فيجب أن يكون كل صوت يخلقه له كذلك ، وهم يجوِّزون أن يكون الصوت المخلوق على جميع الصفات ، فلا يبقى فرق بين الصوت الذى هو كلام اللّه تعالى - على قولهم - والصوت الذى هو ليس بكلام .

الثانى : أنَّ الصفة إذا قامت بمحل كالعلم والقُدرة والكلام والحركة عاد حكمه إلى ذلك المحل ولا يعود حكمه إلى غيره .

الثالث : أنه مشتق المصدر منه اسم الفاعل ، والصفة المشبهة به ... ونحو ذلك ولا يشتق ذلك لغيره . وهذا كله بيِّنٌ ظاهر وهو ما يبيِّن قول السَلَف والأئمة أنَّ مَن قال : « إنَّ اللّه خلق كلاماً فى غيره » لزمه أن يكون حكم التكلم عائداً إلى ذلك المحل لا إلى اللّه .

الرابع : أنَّ اللّه أكد تكليم موسى بالمصدر فقال : ﴿ تَكْلِيماً ﴾ ، قال غير واحد من العلماء : التوكيد بالمصدر ينفى المجاز ، لئلا يُظَن أنه أرسل إليه رسولاً أو كتب إليه كتاباً . بل كلَّمه منه إليه .

الخامس : أن اللّه فضَّل موسى بتكليمه إياه على غيره ممن لم يكلمه وقال : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ ... الآية [1] ، فكان تكليم موسى من وراء الحجاب ، وقال : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِى وَبِكَلامِى ﴾ [2] ، وقال : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِه ﴾ ... إلى قوله : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾ [3] . والوحى هو ما نزَّله اللّه على قلوب الأنبياء بلا واسطة ، فلو كان تكليمه لموسى إنما هو صوت خلقه فى الهواء لكان

---

(١) الشورى : ٥١ (٢) الأعراف : ١٤٤ (٣) النساء : ١٦٣ - ١٦٤

وحى الأنبياء أفضل منه ، لأن أولئك عرفوا المعنى المقصود بلا واسطة . وموسى إنما عرفه بواسطة ، ولهذا كان غلاة الجهمية من الاتحادية ونحوهم يدَّعون أنَّ ما يحصل لهم من الإلهام أفضل مما حصل لموسى بن عمران وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين .

● مذهب غلاة الجهمية تعطيل للرسالة :

ولما فهم السَلَف حقيقة مذهب هؤلاء وأنه يقتضى تعطيل الرسالة [1] ، فإن الرسل إنما بُعِثوا ليبلِّغوا كلام اللّه ، بل يقتضى تعطيل التوحيد ، فإنَّ مَن لا يتكلم ولا يقوم به علم ولا حياة هو كالموات ، بل مَن لا تقوم به الصفات فهو عدم محض ، إذ ذات لا صفة لها إنما يمكن تقديرها فى الذهن لا فى الخارج كتقدير وجود مطلق لا يتعين ولا يتخصص .

فكان قول هؤلاء مضاهياً لقول المتفلسفة الدهرية الذى يجعلون وجود الرب وجوداً مطلقاً بشرط الإطلاق لاصفة له . وقد عُلِمَ أنَّ المطلق بشرط الإطلاق لا يوجد إلا فى الذهن ، وهؤلاء الدهرية ينكرون أيضاً حقيقة تكليمه لموسى ويقولون : إنما هو فيض فاض عليه من العقل الفعَّال ، وهكذا يقولون فى الوحى إلى جميع الأنبياء . وحقيقة قولهم : أنَّ القرآن قول البَشر ، لكنه صدر عن نفس صافية شريفة . وإذا كانت المعتزلة خيراً من هؤلاء - وقد كفَّر السَلَف مَن يقول بقولهم - فكيف هؤلاء ؟

وكلام السَلَف والأئمة فى مثل هؤلاء لا يُحصى ، قال حرب بن إسماعيل الكرمانى : سمعتُ إسحاق بن راهويه يقول : بين أهل العلم اختلاف أنَّ القرآن كلام اللّه وليس بمخلوق ، وكيف يكون شىء من الرب عَزَّ ذكره مخلوقاً ؟ ولو كان كما قالوا لزمهم أن يقولوا : عِلم اللّه وقُدرته ومشيئته مخلوقة ،

---

(١) سقط جواب « لما » ، وتقديره ما يناسب المقام نحو : « كفَّروهم ، أو أنكروا عليهم » .

فإن قالوا ذلك لزمهم أن يقولوا : كان اللّه تبارك اسمه ولا علم ولا قُدرة ولا مشيئة ، وهو الكفر المحض الواضح ، لم يزل اللّه عالِماً متكلماً له المشيئة والقُدرة فى خلقه ، والقرآن كلام اللّه وليس بمخلوق ، فمَن زعم أنه مخلوق فهو كافر .

وقال وكيع بن الجرّاح : مَن زعم أنّ القرآن مخلوق فقد زعم أنّ شيئاً من اللّه مخلوق . فقيل له : من أين قلت هذا ؟ قال : لأن اللّه يقول : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّى ﴾ (١) ولا يكون من اللّه شىء مخلوق . وهذا القول قاله غير واحد من السَلَف .

وقال أحمد بن حنبل : كلام اللّه من اللّه ليس ببائن منه ، وهذا معنى قول السَلَف : القرآن كلام اللّه منه بدأ ومنه خرج وإليه يعود ، كما فى الحديث الذى رواه أحمد وغيره عن جبير بن نفير قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إنكم لن ترجعوا إلى اللّه بشىء أفضل مما خرج منه » - يعنى القرآن . وقد رُوِىَ أيضاً عن أبى أمامة مرفوعاً . وقال أبو بكر الصدِّيق لأصحاب مسيلمة الكذّاب ، لما سمع قرآن مسيلمة : « وَيْحَكم ! أين يُذهب بعقولكم ؟ إنّ هذا كلاماً لم يخرج من إلٍّ » - أى من رب .

● تفسير قول السَلَف فى القرآن : « منه بدأ ومنه خرج » :

وليس معنى قول السَلَف والأئمة : إنه منه خرج ومنه بدأ ، أنه فارق ذاته وحَلّ بغيره ، فإنّ كلام المخلوق إذا تكلم به لا يفارق ذاته ويحل بغيره ، فكيف يكون كلام اللّه ؟ قال تعالى : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ (٢) فقد أخبر أنّ الكلمة تخرج من أفواههم ومع هذا فلم تفارق ذاتهم .

---

(١) السجدة : ١٣ (٢) الكهف : ٥

وأيضاً فالصفة لا تفارق الموصوف وتحل بغيره ، لاصفة الخالق ولا صفة المخلوق ، والناس إذا سمعوا كلام النبى ﷺ ثم بلّغوه عنه كان الكلام الذى بلّغوه كلام رسول الله ﷺ وقد بلّغوه بحركاتهم وأصواتهم فالقرآن أولى بذلك ، فالكلام كلام البارى والصوت صوت القارىء قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ (١) ، وقال ﷺ : « زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم » .

ولكن مقصود السَلَف الرد على هؤلاء الجهمية فإنهم زعموا أنّ القرآن خلقه الله فى غيره فيكون قد ابتدأ وخرج من ذلك المحل الذى خُلِقَ فيه لا من الله ، كما يقولون : كلامه لموسى خرج من الشجرة ، فبيّن السَلَف والأئمة أنّ القرآن من الله بدأ وخرج وذكروا قوله : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى ﴾ (٢) فأخبر أنّ القول منه لا من غيره من المخلوقات .

و « من » هى لابتداء الغاية ، فإن كان المجرور بها عيناً يقوم بنفسه لم يكن صفة لله كقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾ (٣) ، وقوله فى المسيح : ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ (٤) ، وكذلك ما يقوم بالأعيان كقوله : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (٥) .

وأما إذا كان المجرور بها صفة ولم يُذكر لها محل كان صفة لله كقوله : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى ﴾ (٦) ، وكذلك قد أخبر فى غير موضع من القرآن أن القرآن نزل منه وأنه نزل به جبريل منه رداً على هذا المبتدع المفترى وأمثاله ممن يقول إنه لم ينزل منه قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِى حَكَماً وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ، وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ (٧) ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ (٨) وروح القدس هو جبريل ، كما قال فى الآية الأخرى :

---

(١) التوبة : ٦ (٢) السجدة : ١٣ (٣) الجاثية : ١٣
(٤) النساء : ١٧١ (٥) النحل : ٥٣ (٦) السجدة : ١٣
(٧) الأنعام : ١١٤ (٨) النحل : ١٠٢

﴿ نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ * عَلى قَلْبِكَ ﴾ [١] ، وقال : ﴿ مَن كَانَ عَدُواً لِّجبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإذْنِ اللَّه ﴾ [٢] ، وقال هنا : ﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ من رَّبِّكَ ﴾ [٣] ، فبيَّن أنَّ جبريل نزَّله من اللَّه لا من هواء ولا من لوح ولا غير ذلك ، وكذلك سائر آيات القرآن كقوله : ﴿ تَنزيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّه العَزيزِ الحَكيم ﴾ [٤] ، وقوله : ﴿ حم * تَنزيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّه العَزيزِ العَليم ﴾ [٥] ، وقوله : ﴿ حم * تَنزيلٌ مِّنَ الرَّحْمنِ الرَّحيم ﴾ [٦] ، وقوله : ﴿ الم * تَنزيلُ الكِتَابِ لا رَيْبَ فيه من رَّبِّ العَالَمينَ ﴾ [٧] ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [٨] .

● القرآن منزَّل من اللَّه لا من اللوح المحفوظ ، واتعمال لفظ الإنزال فيه :

فقد بيَّن فى غير موضع أنه منزَّل من اللَّه ، فمَن قال إنه منزَّل من بعض المخلوقات كاللوح والهواء فهو مفتر على اللَّه مكذِّب لكتاب اللَّه ، متبع لغير سبيل المؤمنين ، ألا ترى أنَّ اللَّه فرَّق بين ما نزل منه وما نزَّله من بعض المخلوقات كالمطر بأن قال : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ [٩] ، فذكر المطر فى غير موضع وأخبر أنه نزَّله من السماء ، والقرآن أخبر أنه منزَّل منه ، وأخبر بتنزيل مطلق فى مثل قوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا الحَديدَ ﴾ [١٠] لأن الحديد ينزل من رءوس الجبال لا ينزل من السماء ، وكذلك الحيوان فإن الذكر يُنزل الماء فى الإناث . فلم يقل فيه من السماء ، ولو كان جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ لكان اليهود أكرم على اللَّه من أمة محمد ، لأنه قد ثبت بالنقل الصحيح أنَّ اللَّه كتب لموسى

---

(١) الشعراء : ١٩٣ - ١٩٤ (٢) البقرة : ٩٧ (٣) النحل : ١٠٢

(٤) الزمر : ١ ، والجاثية : ٢ ، والأحقاف : ٢ (٥) غافر : ١ - ٢

(٦) فصلت : ١ - ٢ (٧) السجدة : ١ - ٢ (٨) المائدة : ٦٧

(٩) البقرة : ٢٢ (١٠) الحديد : ٢٥

التوراة بيده وأنزلها مكتوبة [1] فيكون بنو إسرائيل قد قرأوا الألواح التى كتبها الله ، وأما المسلمون فأخذوه عن محمد ﷺ ، ومحمد أخذه عن جبريل ، وجبريل عن اللوح ، فيكون بنو إسرائيل بمنزلة جبريل ، وتكون منزلة بنى إسرائيل أرفع من منزلة محمد ﷺ على قول هؤلاء الجهمية ، والله سبحانه جعل من فضائل أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه أنزل عليهم كتاباً لا يغسله الماء ، وأنه أنزله عليهم تلاوة لا كتابة ، وفرّقه عليهم لأجل ذلك . فقال: ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ [2] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [3] .

● القرآن كلام الله بلّغه جبريل لمحمد ، ومحمد للناس برسالتهما :

ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله وإنما وجده مكتوباً كانت العبارة عبارة جبريل وكان القرآن كلام جبريل ترجم به عن الله كما يترجم عن الأخرس الذى كتب كلاماً ولم يقدر أن يتكلم به ، وهذا خلاف دين المسلمين .

وإن احتج بقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [4] قيل له : فقد قال فى الآية الأخرى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [5] ، فالرسول فى هذه الآية محمد ﷺ ، والرسول فى الأخرى جبريل ، فلو أُريد به أنّ الرسول أحدث عبارته لتناقض الخبران ، فعُلِمَ أنه أضافه إليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداث ، ولهذا قال : ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾

---

(١) المراد بالتوراة هنا أصول الشريعة وهى الوصايا التى فى الألواح لا كل أحكام الشريعة من عبادات واحتفالات وعقوبات وغيرها ، فإنّ هذه شرعت بالتدريج وهذا مجمع عليه عند اليهود .

(٢) الإسراء : ١٠٦ (٣) الفرقان : ٣٢

(٤) التكوير : ١٩ - ٢٠ (٥) الحاقة : ٤٠ - ٤٢

ولم يقل مَلَك ولا نبى ، ولا ريب أنَّ الرسول بلّغه كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (١) فكان النبى ﷺ يعرض نفسه على الناس فى الموسم ويقول : « ألا رجل يحملنى إلى قومه لأبلّغ كلام ربى ، فإنَّ قريشاً قد منعونى أن أبلّغ كلام ربى » .

ولما أنزل الله : ﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ (٢) خرج أبو بكر الصدّيق فقرأها على الناس فقالوا : هذا كلامك أم كلام صاحبك ؟ فقال : ليس بكلامى ولا كلام صاحبى ، ولكنه كلام الله .

● القرآن منه قديم محدث بالنسبة إلى تنزيله :

وإن احتج بقوله : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ (٣) قيل له : هذه الآية حُجَّة عليك ، فإنه لما قال : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾ عُلِمَ أن الذكر منه مُحْدَث ومنه ما ليس بمُحْدَث ، لأن النكرة إذا وصفت مُيِّزَ بها بين الموصوف وغيره ، كما لو قال : ما يأتينى من رجل مسلم إلا أكرمته ، وما آكل إلا طعاماً حلالاً ونحو ذلك ، ويُعلم أنَّ المُحْدَث فى الآية ليس هو المخلوق الذى يقوله الجهمى ولكنه الذى أُنزل جديداً ، فإنَّ الله كان ينزّل القرآن شيئاً بعد شئ ، فالمنزّل أولاً هو قديم بالنسبة إلى المنزّل آخراً . وكل ما تقدَّم على غيره فهو قديم فى لغة العرب ، كما قال : ﴿ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ (٦) ، وقال : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴾ (٧) ، وكذلك قوله : ﴿ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ (٨) لم يقل :

---

(١) المائدة : ٦٧ (٢) الروم : ١ - ٢ (٣) الأنبياء : ٢
(٤) يس : ٣٩ (٥) يوسف : ٩٥ (٦) الأحقاف : ١١
(٧) الشعراء : ٧٥ - ٧٦ (٨) الزخرف : ٣

« جعلناه » فقط حتى يُظَن أنه بمعنى خلقناه ، ولكن قال : ﴿ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ أى صيرناه عربياً لأنه قد كان قادراً على أن يُنزِّله عجمياً ، فلما أنزله عربياً كان قد جعله عربياً دون عجمى . وهذه المسألة فى أصول أهل الإيمان والسُنَّة التى فارقوا بها الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم ، والكلام عليها مبسوط فى غير هذا الموضع ... واللّه أعلم .

* * *

obeikandl.com

فتوى أخرى

لشيخ الإسلام فى تكليم اللّه لموسى عليه السلام

وهل هو بحرف وصوت أم لا ؟ ومَن أنكره

- تكفير مَن أنكر تكليم اللّه لموسى مع العلم بالنص فيه :

مسألة فيمن قال : إنّ اللّه لم يكلم موسى تكليماً ، فقال له آخر : بل كلّمه تكليماً ، فقال : إن قلت كلّمه فالكلام لا يكون إلا بحرف وصوت ، والحرف والصوت محدَث ، ومَن قال : إنّ اللّه كلّم موسى بحرف وصوت فهو كافر ، فهو كما قال أو لا ؟ .

« الجواب » : الحمد للّه .. أما مَن قال إنّ اللّه لم يكلّم موسى تكليماً فهذا إن كان لم يسمع القرآن فإنه يعرف أنّ هذا نص القرآن ، فإن أنكره بعد ذلك استتيب ، فإن تاب وإلا قُتِل ، ولا يُقبل منه إن كان كلامه بعد [1] أن يجحد نص القرآن ، بل لو قال : إن معنى كلامى أنه خلق صوتاً فى الهواء فأسمعه موسى كان كلامه أيضاً كفراً ، وهو قول الجهمية الذين كفّرهم السَلَف قالوا : يُستتابون فإن تابوا وإلا قُتلوا ، لكن مَن كان مؤمناً باللّه ورسوله مطلقاً ولم يبلغه من العلم ما يبين له الصواب فإنه لا يُحكم بكفره حتى تقوم عليه الحُجّة التى مَن خالفها كفر . إذ كثير من الناس يخطئ فيما يتأوله من القرآن ويجهل كثيراً مما يرد من معانى الكتاب والسُنّة ، والخطأ والنسيان مرفوعان عن هذه الأمة ، والكفر لا يكون إلا بعد البيان .

والأئمة الذين أمروا بقتل مثل هؤلاء الذين ينكرون رؤية اللّه فى الآخرة ويقولون : « القرآن مخلوق » ونحو ذلك ، قيل : إنهم أمروا بقتلهم لكفرهم ،

---

(١) كذا ، ولعله : « وإن كان كلامه من غير أن .... » .

وقيل لأنهم إذا دعوا الناس إلى بدعتهم أضلوا الناس فقُتِلوا لأجل الفساد فى الأرض وحفظاً لدين الناس أن يضلوهم .

وبالجملة فقد اتفق سَلَف الأمة وأئمتها على أنَّ الجهمية من شر طوائف أهل البدع ، حتى أخرجهم كثير عن الثنتين والسبعين فرقة .

ومن الجهمية المتفلسفة والمعتزلة الذين يقولون : إنَّ كلام اللّه مخلوق ، وإنَّ اللّه إنما كلَّم موسى بكلام مخلوق خلقه فى الهواء ، وأنه لا يُرَى فى الآخرة ، وأنه ليس مبايناً لخلقه ... وأمثال هذه المقالات التى تستلزم تعطيل الخالق وتكذيب رسله وإبطال دينه .

• الكفر جحود قطعى فى الشرع لا العقل :

وأما قول الجهمى : إن قلت كلمة فالكلام لا يكون إلا بحرف وصوت ، والحرف والصوت محدَث ، ومَن قال : إنّ اللّه كلَّم موسى بحرف وصوت فهو كافر . فيقال لهذا الملحد : أنت تقول إنه كلَّمه بحرف وصوت ، لكن تقول بحرف وصوت خلقه فى الهواء وتقول : إنه لا يجوز أن تقوم به الحروف والأصوات لأنها لا تقوم إلا بمتحيز ، والبارى ليس بمتحيز ، ومَن قال إنه متحيز فقد كفر . ومن المعلوم أنَّ مَن جحد ما نطق به الكتاب والسُنَّة كان أولى بالكفر ممن أقر بما جاء به الكتاب والسُنَّة .

وإن قال الجاحد لنص الكتاب والسُنَّة : إنَّ العقل معه ، قال له الموافق للنصوص : بل العقل معى وهو موافق للكتاب والسُنَّة ، فهذا يقول إنَّ معه السمع والعقل ، وذاك إنما يحتج لقوله بما يدعيه من العقل الذى يبيِّن منازعه فساده ، ولو قدِّر أن العقل معه .

والكفر هو من الأحكام الشرعية وليس كل مَن خالف شيئاً عُلِم بنظر العقل يكون كافراً ، ولو قُدِّر أنه جحد بعض صرائح العقول لم يُحكم بكفره حتى يكون قوله كفراً فى الشريعة .

وأما مَن خالف ما عُلِمَ أنَّ الرسول جاء به فهو كافر بلا نزاع ، وذلك أنه ليس فى الكتاب والسُنَّة ولا فى قول أحد من سَلَف الأمة وأئمتها الإخبار عن الله بأنه متحيِّز أو أنه ليس بمتحيِّز ، ولا فى الكتاب والسُنَّة أنَّ مَن قال هذا وهذا يكفر . وهذا اللفظ مبتدع ، والكفر لا يتعلق بمجرد أسماء مبتدعة لا أصل لها فى الكتاب والسُنَّة ، بل يستفسر هذا القائل إذا قال إنَّ الله متحيِّز أو ليس بمتحيِّز ، فإن قال : أعنى بقولى إنه متحيز : أنه دخل فى المخلوقات وأنَّ المخلوقات قد حازته وأحاطت به - فهذا باطل ، وإن قال : أعنى به أنه محاز عن المخلوقات مباين لها ، فهذا حق .

وكذلك قوله : ليس بمتحيِّز ، إن أراد به أنَّ المخلوق لا يحوز الخالق فقد أصاب ، وإن قال : إنَّ الخالق لا يباين المخلوق وينفصل عنه فقد أخطأ .

• الكلام هل يكون بغير حرف ولا صوت ، وهل يكونان غير حادثين :

وإذا عُرِف ذلك فالناس فى الجواب عن حُجَّته الداحضة وهى قوله : « لو قلت إنه كلَّمه فالكلام لا يكون إلا بحرف وصوت ، والحرف والصوت محدَث » ثلاثة أصناف : صنف منعوه المقدمة الأولى ، وصنف منعوه المقدمة الثانية ، وصنف لم يمنعوه المقدمتين بل استفسروه وبيَّنوا أنَّ ذلك لا يمنع أن يكون الله كلَّم موسى تكليماً .

فالصنف الأول .. أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب وأبو الحسن علىّ بن إسماعيل الأشعرى ومَن اتبعهما قالوا : لا نُسلِّم أنَّ الكلام لا يكون إلا بحرف وصوت ، بل الكلام معنى قائم بذات المتكلم ، والحروف والأصوات عبارة عنه ، وذلك المعنى القائم بذات الله تعالى يتضمن الأمر بكل ما أمر به والخبر عن كل

ما أخبر عنه ، فإن عبَّر عنه بالسريانية كان إنجيلاً ، وقالوا : إنه اسم الكلام حقيقة ، فيكون اسم الكلام مشتركاً أو مجازاً فى كلام الخالق ، وحقيقة فى كلام المخلوق .

والصنف الثانى .. سلَّموا لهم أنَّ الكلام لا يكون إلا بحرف وصوت ومنعوهم المقدمة الثانية ، وهو أنَّ الحرف والصوت لا يكون إلا محدَثاً ، وصنف [1] قالوا : إنَّ المحدَث كالحادث سواء أكان قائماً بنفسه أو بغيره ، وهو يتكلم بكلام لا يكون قديماً وهو بحرف وصوت ، وهذا قول مَن يقول : « القرآن قديم وهو بحرف وصوت » كأبى الحسن بن سالم وأتباعه السالمية وطوائف ممن اتبعه ، وقال هؤلاء فى الحرف والصوت نظير ما قاله الذين قبلهم فى المعانى .

وقالوا : كلام لا بحرف ولا صوت لا يُعقل ، ومعنى يكون أمراً ونهياً وخبراً ممتنع فى صريح العقل ، ومَن ادعى أنَّ معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحد وإنما اختلفت العبارات الدالة عليه - فقوله معلوم الفساد بالاضطرار عقلاً وشرعاً ، وإخراج الحروف عن مسمى الكلام مما يُعلم فساده بالاضطرار من جميع اللغات وإن جاز أن يُقال : « إنَّ الحروف والأصوات المخلوقة فى غير كلام الله حقيقة » أمكن حينئذ أن يكون كلَّم موسى بكلام مخلوق فى غيره .

وقالوا لإخوانهم الأولين : إذا قلتم إنَّ الكلام هو مجرد المعنى وقد خلق عبارة بيان [2] ، فإن قلتم : إنَّ تلك العبارة كلامه حقيقة بطلت حجتكم على المعتزلة فإن أعظم حجتكم عليهم قولكم إنه يمتنع أن يكون متكلماً بكلام يخلقه فى غيره ، كما يمتنع أن يعلم بعلم قائم بغيره ، وأن يقدِّر بقُدرة قائمة بغيره ، وأن يريد بإرادة قائمة بغيره ، وإن قلتم : « هى كلام مجازاً » لزم أن يكون الكلام حقيقة فى المعنى مجازاً فى اللفظ ، وهذا مما يُعلم فساده بالاضطرار من جميع اللغات .

---

(١) أى : وصنف آخر من هذا الصنف الثانى - ولذلك تكرر - وإلا صارت الأصناف أربعة .

(٢) هكذا فى الأصل ولعله محرَّف .

● حدوث الحرف والصوت لا يقتضى كونه مخلوقاً :

والصنف الثالث .. الذين لم يمنعوا المقدمتين ولكن استفسروهم وبينُّوا أنَّ هذا لا يستلزم صحة قولكم ، بل قالوا : إن قلتم إنَّ الحرف والصوت محدَث بمعنى أنه يجب أن يكون مخلوقاً منه منفصلاً عنه ، فهذا دليل على فساد قولكم وتناقضه ، وهذا قول ممنوع ، وإن قلتم بمعنى أنه لا يكون قديماً فهو مسلَّم ، لكن هذه التسمية محدَثة .

وهؤلاء صنفان : صنف قالوا إنَّ المحدَث هو المخلوق المنفصل عنه فإذا قلنا : الحرف والصوت لا يكون إلا محدَثاً كان بمنزلة قولنا : لا يكون إلا مخلوقاً ، وحينئذ فيكون هذا المعتزلى أبطل قوله بقوله حيث زعم أنه يتكلم بحرف وصوت مخلوق ، ثم استدل على ذلك بما يقتضى أنه يتكلم لا يتكلم بكلام مخلوق ، وفيه تلبيس .

● مذاهب المسلمين فى كلام اللّه وكونه بحرف وصوت أم لا :

ونحن لا نقول : كلَّم موسى بكلام قديم ولا بكلام مخلوق ، بل هو سبحانه يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء ، كما أنه سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، وأنه سبحانه استوى إلى السماء وهى دخان ، وأنه سبحانه يأتى فى ظلل من الغمام والملائكة ، كما قال : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ (١) ، وقال : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إلا أَن تَاتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَاتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَاتِىَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٤) ... وأمثال ذلك فى

---

(١) الفجر : ٢٢ (٢) الأنعام : ١٥٨

(٣) يس : ٨٢ (٤) التوبة : ١٠٥

القرآن والحديث كثير ، يبيِّن اللّه سبحانه أنه إذا شاء فعل ما أخبر عنه من تكليمه وأفعاله القائمة بنفسه ، وما كان قائماً بنفسه هو كلامه لا كلام غيره ، والمخلوق لا يكون قائماً بالخالق ، ولا يكون الرب محلاً للمخلوقات ، بل هو سبحانه يقوم به ما شاء من كلماته وأفعاله ، وليس من ذلك شيء مخلوقاً ، إنما المخلوق ما كان بائناً عنه . وكلام اللّه من اللّه ليس ببائن منه ، ولهذا قال السَلَف : القرآن كلام اللّه غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، فقالوا : منه بدأ ، أى هو المتكلم به ، لا أنه خلقه فى بعض الأجسام المخلوقة .

وهذا الجواب هو جواب أئمة أهل الحديث والتصوف والفقه وطوائف من أهل الكلام من أئمتهم : من الهشامية والكرامية وغيرهم ، وأتباع الأئمة الأربعة أصحاب أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد ، منهم مَن يختار جواب الصنف الأول ، وهم الذين يرتضون قول ابن كلاب فى القرآن ، وهم طوائف من متأخرى أصحاب مالك والشافعى وأحمد وأبى حنيفة ، ومنهم مَن يختار جواب الصنف الثانى ، وهم الطوائف الذين ينكرون قول ابن كلاب ويقولون : « إن القرآن قديم » كالسلمية وطوائف من أصحاب مالك والشافعى وأحمد وأبى حنيفة ، ومنهم مَن يختار جواب الطائفة الثالثة ، وهم الذين ينكرون قول الطائفتين المتقدمتين الكلاّبية والسالمية .

ثم من هؤلاء مَن يقول بقول الكرامية ، والكرامية ينتسبون إلى أبى حنيفة ، ومنهم مَن لا يختار قول الكرامية أيضاً لما فيه من تناقض آخر ، بل يقول بقول أئمة الحديث كالبخارى ، وعثمان بن سعيد الدارمى ، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ، ومَن قبلهم من السَلَف ، كأبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، ومحمد بن كعب القرظى والزهرى ، وعبد اللّه بن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وما نُقِل من ذلك عن الصحابة والتابعين ، وفى ذلك آثار كثيرة معروفة فى كتب السُنَن والآثار تضيق عنها هذه الورقة .

وبين الأصناف الثلاثة منازعات ودقائق تضيق عنها هذه الورقة ، وقد بسطنا الكلام عليها فى مواضع وبينّا حقيقة كل قول ، وما هو القول الصواب فى صريح المعقول وصحيح المنقول [1] ، لكن هؤلاء الطوائف كلهم متفقون على تضليل مَن يقول : « إنَّ كلام اللّه مخلوق » . والأمة متفقة على أنَّ مَن قال : « إنَّ كلام اللّه مخلوق ، لم يكلّم موسى تكليماً » يُستتاب فإن تاب وإلا يُقتل .

والحمد للّه رب العالمين ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً .

* * *

(١) قد تقدم كل هذا فى مواضع من هذه المجموعة .

obeikandl.com

فتوى أخرى

لشيخ الإسلام رحمه الله فى القرآن هل هو بحرف وصوت أم لا ؟ وفى نقط المصحف وشكله ، هل هما منه أم لا ؟

سئل رحمه الله تعالى عن رجلين تباحثا ، فقال أحدهما : القرآن حرف وصوت ، وقال الآخر : ليس هو بحرف ولا صوت ، وقال أحدهما : النقط التى فى المصحف والشكل من القرآن ، وقال الآخر : ليس ذلك من القرآن ، فما الصواب فى ذلك ؟

● فأجاب رضى الله عنه : الحمد لله رب العالمين . هذه المسألة يتنازع فيها كثير من الناس ويخلطون الحق بالباطل ، فالذى قال : « إنَّ القرآن حرف وصوت » إن أراد بذلك أنَّ هذا القرآن الذى يُقرأ للمسلمين هو كلام الله الذى نزل به الروح الأمين على محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين ، وأنَّ جبريل سمعه من الله والنبى ﷺ سمعه من جبريل ، والمسلمون سمعوه من النبى ﷺ كما قال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ من رَبِّكَ بالحَقِّ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بالحَقِّ ﴾ (٢) فقد أصاب فى ذلك ، فإنَّ هذا مذهب سَلَف الأُمة وأئمتها والدلائل على ذلك كثيرة من الكتاب والسُنَّة والإجماع .

● تخطئة قول ابن كلاب والأشعرى فى كلام الله تعالى :

ومَن قال : « إنَّ القرآن العربى لم يتكلم الله به وإنما هو كلام جبريل أو غيره » عبَّر به عن المعنى القائم بذات الله - كما يقول ذلك ابن كلاب والأشعرى ومَن وافقهما - فهو قول باطل من وجوه كثيرة .

---

(١) النحل : ١٠٢ (٢) الأنعام : ١١٤

فإنَّ هؤلاء يقولون : إنه معنى واحد قائم بالذات ، وأنَّ معنى التوراة والإنجيل والقرآن واحد ، وأنه لا يتعدد ولا يتبعض ، وأنه إن عبَّر عنه بالعربية كان قرآناً ، وبالعبرانية كان توراة ، وبالسريانية كان إنجيلاً ، فيجعلون معنى آية الكرسى وآية الدَّيْن و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (١) و ﴿ تَبَّتَ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ (٢) والتوراة والإنجيل وغيرهما معنى واحداً ، وهذا قول فاسد بالعقل والمشاهدة ، وهو قول أحدثه ابن كلاب لم يسبقه إليه غيره من السَلَف .

وإن أراد القائل بالحرف والصوت أنَّ الأصوات المسموعة من القرَّاء ، والمِداد الذى فى المصاحف قديم أزلى ، أخطأ وابتدع ، وقال ما يخالف العقل والشرع ، فإنَّ النبى ﷺ قال : « زَيِّنُوا القرآن بأصواتكم » فبيَّن أنَّ الصوت صوت القارئ ، والكلام كلام البارئ ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ (٣) ، فالقرآن الذى يقرؤه المسلمون كلام الله لا كلام غيره كما ذكر الله ذلك ، وفى السُنَن عن جابر بن عبد الله أنَّ النبى ﷺ كان يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول : « ألا رجل يحملنى إلى قومه لأبلِّغ كلام ربى فإنَّ قريشاً قد منعونى أن أُبلِّغ كلام ربى » ، وقالوا لأبى بكر الصدِّيق لما قرأ عليهم : ﴿ الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ (٤) : أهذا كلامك أم كلام صاحبك ؟ فقال: ليس بكلامى ولا كلام صاحبى ولكنه كلام الله تعالى .

والناس إذا بلَّغوا كلام النبى ﷺ كقوله : « إنما الأعمال بالنيَّات » أنَّ الحديث الذى يسمعونه حديث النبى ﷺ تكلم به بصوته وبحروفه ومعانيه ، والمحدِّث بلَّغه عنه بصوت نفسه لا بصوت النبى ﷺ ، فالقرآن أولى أن يكون كلام الله إذا بلَّغته الرسل عنه وقرأته الناس بأصواتهم .

---

(١) الإخلاص : ١ (٢) المسد : ١

(٣) التوبة : ٦ (٤) الروم : ١ - ٢

واللّه تكلّم بالقرآن بحروفه ومعانيه بصوت نفسه ، ونادى موسى بصوت نفسه ، كما ثبت بالكتاب والسُنّة وإجماع السَلف ، وصوت العبد ليس هو صوت الرب ولا مثل صوته ، فإنّ اللّه ليس كمثله شئ لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .

وقد نص أئمة الإسلام أحمد ومَن قبله من الأئمة على ما نطق به الكتاب والسُنّة من أنّ اللّه ينادى بصوت ، وأنّ القرآن كلامه تكلّم بحرف وصوت ليس منه شيء كلاماً لغيره ، لا جبريل ولا غيره ، وأن العباد يقرأونه بأصوات أنفسهم وأفعالهم ، فالصوت المسموع من العبد صوت القارئ ، والكلام كلام البارئ .

● خطأ عدم التمييز بين صوت العبد وصوت الرب نفياً وإثباتاً :

وكثير من الخائضين فى هذه المسألة لا يميّز بين صوت العبد وصوت الرب ، بل يجعل هذا هو هذا فينفيهما جميعاً أو يثبتهما جميعاً ، فإذا نفى الحرف والصوت نفى أن يكون القرآن العربى كلام اللّه ، وأن يكون منادياً لعباده بصوته ، وأن يكون القرآن الذى يقرؤه المسلمون هو كلام اللّه كما نفى أن يكون صوت العبد صفة لله عَزّ وجَلّ ، ثم جعل كلام اللّه المتنوع شيئاً واحداً لا فرق بين القديم والحادث ، وهو مصيب فى هذا الفرق دون ذلك الثانى الذى فيه نوع من الإلحاد والتعطيل ، حيث جعل الكلام المتنوع شيئاً واحداً لا حقيقة له عند التحقيق.

وإذا ثبت جعل صوت الرب هو صوت العبد ، أو سكت عن التمييز بينهما مع قوله : إنّ الحروف متعاقبة فى الوجود ، مقترنة فى الذات ، قديمة أزلية الأعيان ، فجعل عين صفة الرب تحل فى العبد أو يتحد بصفته فقال بنوع من الحلول والاتحاد يفضى إلى نوع من التعطيل .

وقد عُلِمَ أنّ عدم الفرق والمباينة بين الخالق وصفاته ، والمخلوق وصفاته - خطأ وضلال لم يذهب إليه أحد من سلف الأمة وأئمتها ، بل هم متفقون على التمييز بين صوت الرب وصوت العبد ، ومتفقون أنّ اللّه تكلّم بالقرآن الذى أنزله على

نبيه ﷺ حروفه ومعانيه ، وأنه ينادى عباده بصوته ، ومتفقون على أنَّ الأصوات المسموعة من القرَّاء أصوات العباد ، وعلى أنه ليس شئ من أصوات العباد ولا مداد المصاحف قديماً ، بل القرآن مكتوب فى مصاحف المسلمين مقروء بألسنتهم ، محفوظ بقلوبهم ، وهو كله كلام اللّه . والصحابة كتبوا المصاحف لما كتبوها بغير شكل ولا نقط لأنهم كانوا عرباً لا يلحنون ، ثم لما حدث اللحن نقَّط الناس المصاحف وشكَّلوها ، فإن كتبت بلا شكل ولا نقط جاز ، وإن كتبت بنقط وشكل جاز ، ولم يكره فى أظهر قولى العلماء وهو إحدى الروايتين عن أحمد .

- حروف المصاحف ونقطها وشكلها مخلوقة ، وكلام اللّه فيها غير مخلوق :

وحكم النقط والشكل حكم الحروف ، فإنَّ الشكل يبيِّن إعراب القرآن كما يبيِّن النقط الحروف ، والمداد الذى يُكتب به الحروف ويُكتب به الشكل والنقط مخلوق ، وكلام اللّه العربى الذى أنزله وكُتِب فى المصاحف بالشكل والنقط وبغير شكل ونقط ليس بمخلوق ، وحكم الإعراب حكم الحروف ، لكن الإعراب لا يستقل بنفسه بل هو تابع للحروف المرسومة ، فلهذا لا يحتاج لتجريدهما وإفرادهما بالكلام ، بل القرآن الذى يقرؤه المسلمون هو كلام اللّه معانيه وحروفه وإعرابه ، واللّه تكلَّم بالقرآن العربى الذى أنزله على محمد ﷺ ، والناس يقرأونه بأفعالهم وأصواتهم . والمكتوب فى مصاحف المسلمين هو كلام اللّه وهو القرآن العربى الذى أنزل على نبيه سواء كُتِب بشكل ونقط أو بغير شكل ونقط ، والمداد الذى كُتِب به القرآن ليس بقديم بل هو مخلوق ، والقرآن الذى كُتِب فى المصحف بالمداد هو كلام اللّه منزَّل غير مخلوق ، والمصاحف يجب احترامها باتفاق المسلمين لأن كلام اللّه مكتوب فيها ، واحترام النقط والشكل إذا كُتِب المصحف مشكلاً منقوطاً كاحترام الحروف باتفاق علماء المسلمين ، كما أن حرمة إعراب القرآن كحُرمة حروفه المنقوطة باتفاق المسلمين ، ولهذا قال أبو بكر وعمر : حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه .

● الآيات الدالة على أنه تعالى يتكلم بما شاء شيئاً بعد شيء :

واللّه تكلّم بالقرآن بحروفه ومعانيه ، فجميعه كلام اللّه فلا يقال : بعضه كلام اللّه وبعضه ليس بكلام اللّه ، وهو سبحانه نادى موسى بصوت سمعه موسى ، فإنه قد أخبر أنه نادى موسى فى غير موضع من القرآن كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ (١) ، والنداء لا يكون إلا صوتاً باتفاق أهل اللغة ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ (٢) ، فقد فرّق اللّه بين إيحائه إلى النبيين وبين تكليمه لموسى ، فمَن قال : إنّ موسى لم يسمع صوتاً بل ألهمَ معناه ، لم يُفرّق بين موسى وغيره وقد قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ (٤) ، فقد فرّق بين الإيحاء والتكلم من وراء حجاب كما كلّم اللّه موسى ، فمَن سوّى بين هذا وهذا كان ضالاً .

وقد قال الإمام أحمد رضى اللّه عنه وغيره : لم يزل اللّه متكلماً إذا شاء وهو يتكلم بمشيئته وقُدرته ، يتكلم بشئ بعد شئ ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴾ (٥) فناداه حين أتاها ولم يناده قبل ذلك ، وقال تعالى :

---

(١) النازعات : ١٦ (٢) النساء : ١٦٣ - ١٦٤ (٣) البقرة : ٢٥٣
(٤) الشورى : ٥١ (٥) طه : ١١

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١) ، فهو سبحانه ناداهما حين أكلا منها ولم ينادهما قبل ذلك ، وكذلك قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾ (٢) بعد أن خلق آدم وصوّره ولم يأمرهم قبل ذلك ، وكذا وقوله : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٣) ، فأخبر أنه قال له : كن ، فيكون - بعد أن خلقه من تراب ، ومثل هذا الخبر في القرآن كثير يخبر أنه تكلّم في وقت معيّن ونادى في وقت معيّن . وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه لما خرج إلى الصفا قرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ (٤) وقال : « نبدأ بما بدأ الله به » ، فأخبر أنّ الله بدأ بالصفا قبل المروة .

والسلف اتفقوا على أنّ كلام الله منزّل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود . فظن بعض الناس أنّ مرادهم أنه قديم العين ، ثم قالت طائفة : هو معنى واحد وهو الأمر بكل مأمور والنهي عن كل منهي ، والخبر بكل مخبر ، إن عبّر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبّر عنه بالعبرانية كان توراة ، وإن عبّر عنه بالسريانية كان إنجيلاً . وهذا القول مخالف للشرع والعقل .

وقالت طائفة : هو حروف وأصوات قديمة الأعيان لازمة لذات الله لم تزل لازمة لذاته ، وإنّ الباء والسين والميم موجودة مقترنة بعضها ببعض معاً أزلاً وأبداً ، لم تزل ولا تزال لم يسبق منها شيء شيئاً . وهذا أيضاً مخالف للشرع والعقل .

---

(١) الأعراف : ٢٢ (٢) الأعراف : ١١

(٣) آل عمران : ٥٩ (٤) البقرة : ١٥٨

● مَن أنكر تكليمه تعالى ونداءه لموسى بمشيئته واختياره حقيقة :

وقالت طائفة : إنَّ اللّه لا يتكلم بمشيئته وقُدرته ، وأنه فى الأزل كان متكلماً بالنداء الذى سمعه موسى ، وإنما تجدد استماع موسى لا أنه ناداه حين أتى الوادى المقدس ، بل ناداه قبل ذلك بما لا يتناهى ولكن تلك الساعة سمع النداء . وهؤلاء وافقوا الذين قالوا : « إنَّ القرآن مخلوق » فى أصل قولهم . فإنَّ أصل قولهم : إنَّ الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية فلا يقوم به كلام ولا فعل باختياره ومشيئته ، وقالوا : هذه حوادث والرب لا تقوم به الحوادث ، فخالفوا صحيح المنقول وصريح المعقول ، واعتقدوا أنهم بهذا يردون على الفلاسفة ويثبتون حدوث العالم ، وأخطأوا فى ذلك ، فلا للإسلام نصروا ، ولا للفلاسفة كسروا . وادعوا أنَّ الرب لم يكن قادراً فى الأزل على كلام يتكلم به ولا فعل يفعله ، وأنه صار قادراً بعد أن لم يكن قادراً بغير أمر حدث ، أو يغيرون العبارة فيقولون : لم يزل قادراً ، لكن يقولون إنَّ المقدور كان ممتنعاً ، وإن الفعل صار ممكناً له بعد أن صار ممتنعاً عليه من غير تجدد شىء ، وقد يعبِّرون عن ذلك بأن يقولوا : كان قادراً فى الأزل على ما يمكن فيما لا يزال ، لا على مالا يمكن فى الأزل ، فيجمعون بين النقيضين ، حيث يثبتونه قادراً فى حال كون المقدور عليه ممتنعاً عندهم ، ولم يفرِّقوا بين نوع الكلام والفعل وبين عينه كما لم يفرق الفلاسفة بين هذا وهذا ، بل الفلاسفة ادعوا أنَّ مفعوله المعيَّن قديم بقِدَمه ، فضلُّوا فى ذلك وخالفوا صريح المعقول وصحيح المنقول . فإن الأدلة لا تدل على قِدَم شىء بعينه من العالَم بل تدل على أنَّ ما سوى اللّه مخلوق حادث بعد أن لم يكن ، إذ هو فاعل بقُدرته ومشيئته كما تدل على ذلك الدلائل القطعية ، والفاعل بمشيئته لا يكون شىء من مفعوله لازماً بصريح العقل واتفاق عامة العقلاء ، بل وكل فاعل لا يكون شىء من مفعوله لازماً لذاته ، ولا يتصور مقارنة مفعوله المعين له ، ولو قُدِّر أنه فاعل بغير إرادة فكيف الفاعل بالإرادة .

• المعلول مقارن علّته إذا جرت مجرى الشروط :

وما يُذكر بأنّ المعلول يقارن علّته إنما يصح فيما كان من العلل يجرى مجرى الشروط ، فإن الشرط لا يجب أن يتقدم على المشروط بل قد يقارنه كما تقارن الحياة العلم ، وأما ما كان فاعلاً سواء سمى علّة أو لم يسم علّة فلا بد أن يتقدم على الفعل المعين ، والفعل المعين لا يجوز أن يقارنه شيء من مفعولاته ، ولا يعرف العقلاء فاعلاً قط يلتزمه مفعول معين ، وقول القائل : حركتُ يدى فتحرك الخاتم هو من باب الشروط لا من باب الفاعلين [1] ، ولأنه لو كان العالَم قديماً لكان فاعله موجباً بذاته فى الأزل ولم يتأخر عنه موجبه ومقتضاه ، ولو كان كذلك لم يحدث شيء من الحوادث وهذا خلاف المشاهدة ، وإن كان هو سبحانه لم يزل قادراً على الكلام والفعل [1] بل لم يزل متكلماً إذا شاء فاعلاً لما يشاء ، ولم يزل موصوفاً بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الجلال والإكرام ، والعالَم فيه من الأحكام والاتقان ما دلّ على علم الرب ، وفيه من الاختصاص ما دلّ على مشيئته ، وفيه من الإحسان ما دلّ على رحمته ، وفيه من العواقب الحميدة ما دلّ على حكمته ، وفيه من الحوادث ما دلّ على قُدرة الرب تعالى ، مع أنّ الرب مستحق لصفات الكمال لذاته ، فإنه مستحق لكل كمال ممكن للوجود لا نقص فيه منزّه عن كل نقص ، وهو سبحانه ليس له كفؤ فى شيء من أموره ، فهو موصوف بصفات الكمال على وجه التفصيل منزّه فيها عن التشبيه والتمثيل ، ومنزّه عن النقائص مطلقاً ، فإنّ وصفه بها من أعظم الأباطيل ، وكماله من لوزام ذاته المقدسة لا يستفيده من غيره بل هو المنعم على خلقه بالخلق والإنشاء وما جعله فيهم من صفات الإحياء ، وخالق صفات الكمال أحق بها ، ولا كفؤ له فيها .

---

(١) لِينظر العطف فى هذه الجملة الشرطية على أى شيء يقابله ، ولينظر جواب شرطها أين هو ؟

• أصل الاضطراب فى كلام اللّه « المناظرة فى مسألة حدوث العالَم » :

وأصل اضطراب الناس فى مسألة كلام اللّه أنَّ الجهمية والمعتزلة لما ناظرت الفلاسفة فى مسألة حدوث العالَم اعتقدوا أنَّ ما يقوم به من الصفات والأفعال المتعاقبة لا يكون إلا حادثاً بناء على أنَّ مالا يتناهى لا يمكن وجوده [1] ، والتزموا أنَّ الرب كان فى الأزل غير قادر على الفعل والكلام ، بل كان ذلك ممتنعاً عليه وكان معطلاً عن ذلك ، وقد يعبِّرون عن ذلك بأنه كان قادراً فى الأزل على الفعل فيما لا يزال مع امتناع الفعل عليه فى الأزل ، فيجمعون بين النقيضين حيث يصفونه بالقُدرة فى حال امتناع المقدور لذاته إذ كان الفعل يستلزم أن يكون له أول ، والأزل لا أول له ، والجمع بين إثبات الأولية ونفيها جمع بين النقيضين .

ولم يهتدوا إلى الفرق بين ما يستلزم الأولية والحدوث وهو الفعل المعين والمفعول المعين ، وبين ما لا يستلزم ذلك وهو نوع الفعل والكلام ، بل هذا يكون دائماً وإن كان كل من آحاده حادثاً كما يكون دائماً فى المستقبل وإن كان كل من آحاده فانياً ، بخلاف خالق يلزمه مخلوقه المعين دائماً ، فإنَّ هذا هو الباطل فى صريح العقل وصحيح النقل ، ولهذا اتفقت فِطَر العقلاء على إنكار ذلك لم ينازع فيه إلا شرذمة من المتفلسفة كابن سينا وأمثاله الذين زعموا أنَّ الممكن المفعول قد يكون قديماً واجب الوجود بغيره ، فخالفوا فى ذلك جماهير العقلاء مع مخالفتهم لسلفهم أرسطو وأتباعه ، فإنه لم يكونوا يقولون ذلك وإن قالوا بقِدَم الأفلاك ، وأرسطو أول مَن قال بقِدَمها من الفلاسفة المشّائين بناء على إثبات عِلَّة غائية لحركة الفلك يتحرك الفلك للتشبه بها ، لم يثبتوا له فاعلاً مبدعاً ولم يثبتوا ممكناً قديماً واجباً بغيره ، وهم وإن كانوا أجهل باللّه وأكفر من

---

(١) يعنى فى الأزل ، تركه للعلم به .. أو سقط من الناسخ .

متأخريهم فهم يسلّمون لجمهور العقلاء أن ما كان ممكناً بذاته فلا يكون إلا محدَثاً مسبوقاً بالعدم فاحتاجوا أن يقولوا : كلامه مخلوق منفصل عنه .

• مذهب طوائف المبتدعة المخالفة للنصوص فى كلام الله وأفعاله :

وطائفة وافقتهم على امتناع وجود ما لا نهاية له لكن قالوا تقوم به الأمور الاختيارية فقالوا : إنه فى الأزل لم يكن متكلماً بل ولا كان الكلام مقدوراً له ، ثم صار متكلماً بلا حدوث حادث بكلام يقوم به وهو قول الهاشمية والكرامية وغيرهم .

وطائفة قالت : إذ كان القرآن غير مخلوق فلا يكون إلا قديم العين لازماً لذات الرب فلا يتكلم بمشيئته وقُدرته ، ثم منهم مَن قال : هو معنى واحد قديم ، فجعل آية الكرسى وآية الدَيْن وسائر آيات القرآن والتوراة والإنجيل وكل كلام يتكلم الله به معنى واحداً لا يتعدد ولا يتبعض ، ومنهم مَن قال : إنه حروف وأصوات مقترنة لازمة للذات ، وهؤلاء أيضاً وافقوا الجهمية والمعتزلة فى أصل قولهم : إنه متكلم بكلام لا يقوم بنفسه ومشيئته وقُدرته ، وأنه لا تقوم به الأمور الاختيارية ، وأنه لم يستو على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض ، ولا يأتى يوم القيامة ، ولم يناد موسى حين ناداه ، ولا تغضبه المعاصى ولا ترضيه الطاعات ، ولا تفرحه توبة التائبين . وقالوا فى قوله : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [1] ... ونحو ذلك : إنه لا يراها إذا وُجِدَت ، بل إما أنه لم يزل رائياً لها ، وإما أنه لم يتجدد شيء موجود بل تعلق معدوم .... إلى أمثال هذه المقالات التى خالفوا فيها نصوص الكتاب والسُنّة مع مخالفة صريح العقل .

---

(١) التوبة : ١٠٥

والذى ألجأهم لذلك موافقتهم للجهمية على أصل قولهم فى أنه سبحانه لا يقدر فى الأزل على الفعل والكلام ، وخالفوا السَلَف والأئمة فى قولهم : لم يزل اللّه متكلماً إذا شاء ، ثم افترقوا أحزاباً كما تقدم : الخلقية ، والحدوثية ، والاتحادية ، والاقترانية .

• شر المبتدعة « الصابئة والمتفلسفة » وإبطال قولهم :

وشر من هؤلاء الصابئة والفلاسفة الذين يقولون : إنَّ اللّه لم يتكلم لا بكلام قائم بذاته ولا بكلام يتكلم به بمشيئته وقُدرته ، لا قديم النوع ولا قديم العين ، ولا حادث ولا مخلوق ، بل كلامه عندهم ما يفيض على نفوس الأنبياء ، ويقولون : إنه كلّم موسى من سماء عقله ، وقد يقولون : إنه تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات ، فإنه إنما يعلمها على وجه كلى ، ويقولون مع ذلك : إنه يعلم نفسه ويعلم ما يفعله .

وقولهم : « يعلم نفسه ومفعولاته » حق ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ (١) ، لكن قولهم مع ذلك : « إنه لا يعلم الأعيان المعينة » ، جهل وتناقض ، فإنَّ نفسه المقدسة معيَّنة ، والأفلاك معيَّنة ، وكل موجود معيَّن ، فإن لم يعلم المعيَّنات لم يعلم شيئاً من الموجودات ، إذ الكليات إنما تكون كليات فى الأذهان لا فى الأعيان ، فمَن لم يعلم إلا الكليات لم يعلم شيئاً من الموجودات ، تعالى اللّه عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وهم إنما ألجأهم إلى هذا الإلحاد فرارهم من تجدد الأحوال للبارئ تعالى ، مع أنَّ هؤلاء يقولون : إنَّ الحوادث تقوم بالقديم ، وإنَّ الحوادث لا أول لها ، لكن نفوا ذلك عن البارئ لاعتقادهم أنه لاصفة له بل هو وجود مطلق ، وقالوا : إنَّ العلم نفس عين العالِم ، والقُدرة نفس عين القادر ، والعلم والعالِم شىء واحد ، والمريد والإرادة شىء واحد ، فجعلوا هذه الصفة هى الأخرى ، وجعلوا الصفات هى الموصوف .

---

(١) الملك : ١٤

ومنهم مَن يقول : بل العلم كل المعلوم - كما يقوله الطوسى صاحب شرح الإشارات - فإنه أنكر على ابن سينا إثباته لعلمه بنفسه وما يصدر عن نفسه ، وابن سينا أقرب إلى الصواب لكنه تناقض مع ذلك حيث نفى قيام الصفات به ، وجعل الصفة عين الموصوف وكل صفة هى الأخرى .

ولهذا كان هؤلاء هم أوغل فى الاتحاد والإلحاد ممن يقول : « معانى الكلام شىء واحد » ، لكنهم ألزموا قولهم لأولئك ، فقالوا : إذا جاز أن تكون المعانى المتعددة شيئاً واحداً ، جاز أن يكون العلم هو القُدرة ، والقُدرة هى الإرادة ، فاعترف حُذّاق أولئك بأنّ هذا الإلزام لا جواب عنه .

● اللوازم الباطلة ديناً وعقلاً للنظريات فى كلامه تعالى وصفاته :

ثم قالوا : وإذا جاز أن تكون هذه الصفة هى الأخرى ، والصفة هى الموصوف ، جاز أن يكون الموجود الواجب القديم الخالق هو الموجود الممكن المحدَث المخلوق ، فقالوا : إنّ وجود كل مخلوق هو عين وجود الخالق ، وقالوا : الوجود واحد ، ولم يفرّقوا بين الواحد بالنوع والواحد بالعين ، كما لم يفرّق أولئك بين الكلام الواحد بالعين ، والكلام الواحد بالنوع .

وكان منتهى أمر أهل الإلحاد فى الكلام إلى هذا التعطيل والكفر والاتحاد الذى قاله أهل الوحدة والحلول والاتحاد فى الخالق والمخلوقات ، كما أنّ الذين لم يفرّقوا بين نوع الكلام وعينه وقالوا : هو يتكلم بحرف وصوت قديم ، قالوا أولاً : إنه لا يتكلم بمشيئته وقُدرته ولا تسبق الباء السين ، بل لما نادى موسى فقال : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى ﴾ ... إلى [1] : ﴿ أَنَا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ كانت الهمزة والنون وما بينهما موجودات فى الأزل يقارن بعضها بعضاً ، لم تزل ولا تزال لازمة لذات الله .

---

(١) كذا فى الأصل والآية الأولى من سورة طه (١٤) ، والتى بعد « إلى » من سورة القصص (٣٠) فهى ليست غاية لما قبلها ، فيظهر أن فى الكلام تحريفاً أو سقطاً من النساخ ، والمراد مفهوم على كل حال .

ثم قال فريق منهم : إنَّ ذلك القديم هو نفس الأصوات المسموعة من القرَّاء ، وقال بعضهم : بل المسموع صوتان : قديم ومحدَث - وقال بعضهم : أشكال المداد قديمة أزلية . وقال بعضهم : محل المداد قديم أزلى . وحُكِىَ عن بعضهم أنه قال : المداد قديم أزلى ، وأكثرهم يتكلمون بلفظ القديم ولا يفهمون معناه ، بل منهم مَن يظن أنه قديم فى علمه ، ومنهم مَن يظن أنَّ معناه متقدم على غيره ، ومنهم مَن يظن أنَّ معنى اللفظ أنه غير مخلوق ، ومنهم مَن لا يميز بين ما يقول ، فصار هؤلاء حلولية اتحادية فى الصفات ، ومنهم مَن يقول بالحلول والاتحاد فى الذات والصفات ، وكان منتهى أمر هؤلاء وهؤلاء إلى التعطيل .

والصواب فى هذا الباب وغيره مذهب سَلَف الأمة وأئمتها : أنه سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء ، وأنه يتكلم بمشيئته وقُدرته ، وأنَّ كلماته لا نهاية لها ، وأنه نادى موسى بصوت سمعه موسى ، وإنما ناداه حين أتى لم يناده قبل ذلك ، وأنَّ صوت الرب لا يماثل أصوات العباد ، كما أن علمه لا يماثل علمهم ، وقُدرته لا تماثل قُدرتهم ، وأنه سبحانه بائن عن مخلوقاته بذاته وصفاته ، ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته وصفاته القائمة بذاته ، ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته ، وأنَّ أقوال أهل التعطيل والاتحاد ، الذين عطلوا الذات أو الصفات أو الكلام أو الأفعال باطلة ، وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول فى الذات أو الصفات باطلة ، وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع وقد بسطناها فى الواجب الكبير .. والله أعلم بالصواب .

* * *

فتوى أخرى لشيخ الإسلام

فى إثبات أنَّ الكلام صفة المتكلم لا عينه ولا غيره

سُئل أيضاً رضى اللّه عنه : ما تقول السادة العلماء الجهابذة أئمة الدين رضى اللّه عنهم أجمعين ، فيمن يقول : الكلام غير المتكلم ، والقول غير القائل ، والقرآن والمقروء والقارئ كل واحد منها له معنى ، بيِّنوا لنا ذلك بياناً شافياً ليصل إلى ذهن الحاذق والبليد .. أثابكم اللّه بمنه .

● فأجاب رضى اللّه عنه : الحمد للّه ، مَن قال : « إنَّ الكلام غير المتكلم والقول غير القائل » وأراد أنه مباين له ومنفصل عنه فهذا خطأ وضلال ، وهو قول مَن يقول : « إنَّ القرآن مخلوق » فإنهم يزعمون أنَّ اللّه لا يقوم به صفة من الصفات لا القرآن ولا غيره ، ويوهمون الناس بقولهم : العلم غير العالِم ، والقُدرة غير القادر ، والكلام غير المتكلم . ثم يقولون : وما كان غير اللّه فهو مخلوق ، وهذا تلبيس منهم .

فإنَّ لفظ « الغير » يُراد به ما يجوز مباينته للآخر ومفارقته له ، وعلى هذا فلا يجوز أن يُقال : علم اللّه غيره ، ولا يُقال : إنَّ الواحد من العشرة غيرها ... وأمثال ذلك ، وقد يُراد بلفظ « الغير » ما ليس هو الآخر ، وعلى هذا فتكون الصفة غير الموصوف ، لكن على هذا المعنى لا يكون ما هو غير ذات اللّه الموصوفة بصفاته مخلوقاً ، لأن صفاته ليست هى الذات لكن قائمة بالذات ، واللّه سبحانه وتعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات كماله ، وليس الاسم اسماً لذات لا صفات لها ، بل يمتنع وجود ذات لا صفات لها .

● قول السَلَف : « القرآن كلام اللّه ، منه بدأ وإليه يعود » :

والصواب فى مثل هذا أن يقال : الكلام صفة المتكلم ، والقول صفة القائل ، وكلام اللّه ليس مبايناً منه بل أسمعه لجبريل ونزل به على محمد ﷺ

كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ (١) ، ولا يجوز أن يقال : إنَّ كلامَ اللّه فارق ذاته وانتقل إلى غيره . بل يقال كما قال السَلَف : إنه كلام اللّه غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود . فقولهم : « منه بدأ » رد على مَن قال : إنه مخلوق فى بعض الأجسام ومن ذلك المخلوق ابتدأ .. فبيَّنوا أنَّ اللّه هو المتكلم به « ومنه بدأ » لا من بعض المخلوقات ، « وإليه يعود » أى فلا يبقى فى الصدور منه آية ولا فى المصاحف حرف ، وأما القرآن فهو كلام اللّه .

فمَن قال : « إنَّ القرآن الذى هو كلام اللّه غير اللّه » فخطؤه وتلبيسه كخطأ مَن قال : إنَّ الكلام غير المتكلم ، وكذلك مَن قال : « إنَّ كلام اللّه له مقروء غير القرآن الذى تكلَّم به » فخطؤه ظاهر ، وكذلك مَن قال : « إنَّ القرآن الذى يقرؤه المسلمون غير المقروء الذى يقرؤه المسلمون » فقد أخطأ .

● الضلال فى الألفاظ المجملة إذا لم يبين المراد منها :

وإن أراد بالقرآن مصدر : قرأ يقرأ قراءة وقرآناً ، وقال : أردتُ أنَّ القراءة غير المقروء فلفظ القراءة مجمل ، قد يراد بالقراءة القرآن ، وقد يراد بالقراءة المصدر ، فمَن جعل القراءة التى هى المصدر غير المقروء كما يجعل التكلم الذى فعله غير الكلام الذى هو يقوله ، وأراد بالغير أنه ليس هو إياه فقد صدق ، فإنَّ الكلام الذى يتكلم به الإنسان يتضمن فعلاً كالحركة ويتضمن ما يقترن بالفعل من الحروف والمعانى ، ولهذا يجعل القول قسيماً للفعل تارة ، وقسماً منه أخرى ، فالأول كما يقول : « الإيمان قول وعمل » ، ومنه قوله ﷺ : « إنَّ اللّه تجاوز لأمتى ما حدَّثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به » ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (٢) ،

---

(١) الأنعام : ١١٤ (٢) فاطر : ١٠

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ (١) ... وأمثال ذلك فيما يفرّق بين القول والعمل ، وأما دخول القول فى العمل ففى مثل قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) ، وقد فسّروه بقول : « لا إله إلا الله » ، ولما سُئِل ﷺ أى الأعمال أفضل ؟ قال : « الإيمان بالله » ، مع قوله : « الإيمان بضع وسبعون شُعبة أعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » ... ونظائر ذلك متعددة .

وقد تنوزع فيمن حلف لا يعمل عملاً - إذا قال قولاً كالقراءة ونحوها - هل يحنث ؟ على قولين فى مذهب أحمد وغيره بناء على هذا .

فهذه الألفاظ التى فيها إجمال واشتباه إذا فصلت معانيها وإلا وقع فيها نزاع واضطراب .. والله سبحانه وتعالى أعلم .

« تم الكتاب المجموع .. ولله الحمد »

* * *

(١) يونس : ٦١ (٢) الحجر : ٩٢ - ٩٣

تذييل

يقول الشيخ محمد رشيد رضا - محقق الكتاب فى طبعته الأولى - :

« قد جمع هذه المباحث والفتاوى عالِم الشام السَلَفى الأثرى ، الأستاذ الشيخ جمال الدين القاسمى الشهير - رحمه الله - من كتاب الكواكب وغيره من كتب شيخ الإسلام وفتاويه ، وأرسله إلى صديقنا السَلَفى الأثرى السرى ، صاحب الفضيلة الشيخ محمد نصيف الحجازى ، وقد رفعه هذا إلى الإمام الهمام ، ومحيى مذهب السَلَف وسُنَّة خير الآنام ، عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها ، فبادر إلى إصدار أمره إلينا بطبعه مع رسائل أخرى لشيخ الإسلام - قدَّس الله - روحه لنشره فى مملكته وغيرها كسائر مطبوعاته النافعة (وهى ما حواه هذا المجموع) .

وكنا نظن أنَّ المرحوم القاسمى عنى بقراءته وتصحيحه بنفسه ، فأراحنا من التعب فى طبعه ، ولكننا وجدنا فيه من الغلط والتحريف ما استبعدنا معه أن يكون عنى بتصحيحه ، وقد هوَّن علينا تصحيحه ما فيه من تكرار المسائل فاستفدنا من مقابلة بعضها ببعض .

وأما قيمة هذا المجموع الدينية العلمية فهى لا تُقَدَّر ، والتكرار فيه مفيد فإن هذه التحقيقات الواسعة قلَّما يعيها أحد إلا إذا تكررت على ذهنه مراراً كثيرة .

ومن الغريب أنَّ هذه المسائل كان يكتبها شيخ الإسلام - قدَّس الله روحه - أو يمليها من غير مراجعة كتاب من الكتب ، وهى من الآيات البيِّنات ، والبراهين الواضحات ، على أنَّ هذا الرجل من أكبر آيات الله فى خلقه ، أيَّدَ بها كتابه الذى قال فيه إنه : ﴿ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (١) ، وسُنَّة رسوله ﷺ ، وما كان عليه السَلَف الصالح من فهمها ، والاعتصام بها .

---

(١) الإسراء : ٩

ويُعلم من كل فتوى منها - بله جملتها ومجموعها - أنه رحمه الله تعالى قد جمع من العلوم النقلية والعقلية ، الشرعية والتاريخية والفلسفية ، ومن الإحاطة بمذاهب الملل والنحل وآراء المذاهب ومقالات الفرق حفظاً وفهماً ما لا نعلم مثله عن أحد من علماء الأرض قبله ولا بعده ، وأغرب من حفظه لها استحضاره إياها عند التكلم والإملاء أو الكتابة ، وأعظم من ذلك ما آتاه الله من قوة الحكم فى إبطال الباطل وإحقاق الحق فى كل منها بالبراهين النقلية والعقلية ، ونصر مذهب السَلَف فى فهم الكتاب والسُنَّة على كل ما خالفه من مذاهب المتكلمين والفلاسفة وغيرهم ... ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُوْ الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ [1] » ا هـ .

* * *

(١) الحديد : ٢١ ، والجمعة ٤